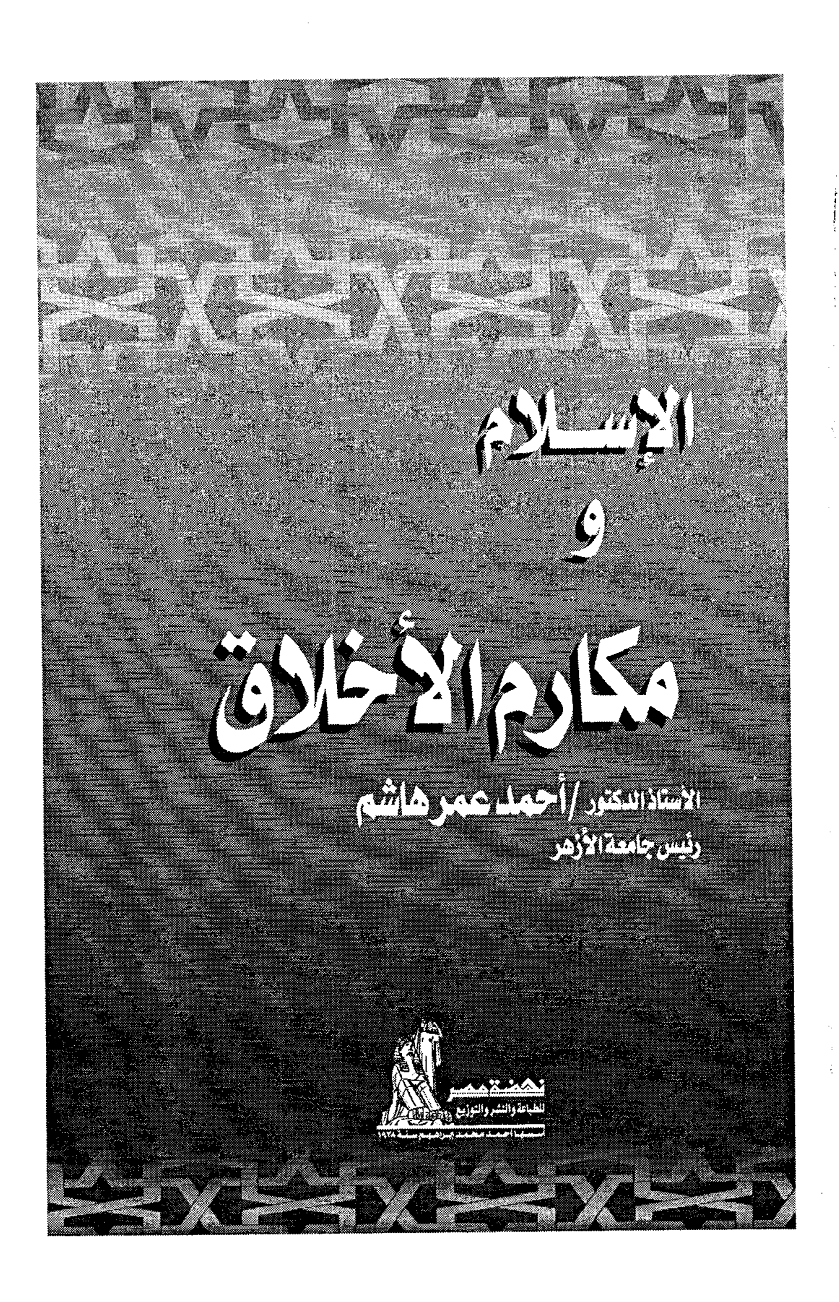

الإسلام
و
مكارم الأخلاق
الأستاذ الدكتور / أحمد عمر هاشم
رئيس جامعة الأزهر
نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

اسم الكتـــاب: الإسلام ومكارم الأخلاق.
اسم المؤلـف: دكتور / أحمد عمر هاشم
تاريخ النشــر: طبعة أولى :ديسمبر ١٩٩٨ .
رقم الإيــداع: ١٤٢٦٥ /١٩٩٨ .
الترقيم الدولي: I . S . B . N 977 - 14 - 0830 -5
النــاشـــر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .
المركز الرئيسي: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة .
مدينة السادس من أكتوبر .
ت: ٣٣٠٢٨٧ / ٠١١ (١٠ خطوط) فاكس: ٠١١/٣٣٠٢٩٦ .
مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة .
ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٠٢/٥٩٠٨٨٩٥ .
فاكس: ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥ . ص.ب: ٩٦ الفجالة .
إدارة النشــر: ٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة .
ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٠٢/٣٤٧٢٨٦٤ .
فاكس: ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦ . ص.ب: ٢٠ إمبابة .



مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد :

فإن الإسلام هو دين الأدب العالى والذوق الرفيع والخلق العظيم ، يحث أتباعه على التحلى بمكارم الأخلاق ، والتخلى عن رذائلها ، وحين وصف رب العزة - سبحانه وتعالى - رسوله العظيم عليه أفضل الصلاة وأتم السلام - قال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ، ولنا فى رسولنا الكريم الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة فى السير على نهجه والتخلق بأخلاقه التى قالت عنها السيدة عائشة - رضى الله عنها - عندما سئلت عن أخلاق الرسول - ﷺ - : «كان خلقه القرآن» .

وقد قدمنا فى هذا الكتاب بعضا من مكارم الأخلاق فى الإسلام ، وصنائع المعروف التى تقى مصارع السوء ، والتى بها تسمو الأمم ، وترقى المجتمعات ، والبقاء دائما للأصلح ، ولمن يتخلق بالأخلاق الحسنة .

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وندعو الله العلى القدير أن ينتفع بهذه الصفحات كل قارئ مسلم وعلى الله قصد السبيل .

د/ أحمد عمر هاشم



وسطية الأمة:

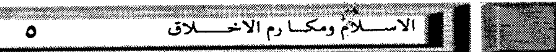
قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (١) .

والوسط : الخيار والأجود ، ولما أنعم الله على هذه الأمة بنعمة الوسطية فكانت خير الأمم ، خصها - سبحانه وتعالى- بأكمل الشرائع وأوضح المناهج وأيسر التكاليف وأوضحها ، كما قال سبحانه :

﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾(٢)

وفيما رواه الأمام أحمد - بسنده - عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : «**يدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه، فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، قال: فذلك قوله: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) قال: والوسط العدل، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم**(٣).

(١) سورة البقرة : (١٤٣) . (٢) سورة الحج : (٧٨) .
(٣) رواه البخارى والترمذى والنسائى وابن ماجه من طريق الأعمش .



وفيما رواه الإمام أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيدعى قومه فيقال: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا. فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته. فيدعى محمد وأمته، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم. فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا» فذلك قوله عز وجل ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[1] . والآية الكريمة تشير إلى أن الله تعالى حين حول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة قبلة إبراهيم - عليه السلام - واختارها لهم ليجعلهم خيار الأمم، ليكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم، لأن الجميع معترفون لهذه الأمة بالفضل، وواضح أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة، وكان أكثر أهل المدينة اليهود، أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهرا، وكان يحب قبلة إبراهيم، فكان يتوجه بالدعاء إلى ربه - سبحانه وتعالى - وينظر إلى السماء فأنزل الله - تعالى - قوله: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) ﴾[2] .

(١) سورة البقرة : (١٤٣) .
(٢) سورة البقرة : (١٤٤) .

وكان عليه الصلاة والسلام قبل هجرته قد أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس فكان بمكة يصلى بين الركنين فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس ، فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس .

وكان الأمر باتجاهه إلى بيت المقدس من الله – تعالى – ، وكان التحويل إلى الكعبة من الله ووافق رغبة رسول الله ﷺ ، فقد شرع الله التوجه إلى بيت المقدس ثم شرع التحول إلى الكعبة ، ليظهر من يتبع الرسول ﷺ ممن ينقلب على عقبيه ، قال – تعالى– :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ ﴾ (١) .

عن البراء– رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ صلَّى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت ، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر وصلى معه قوم ، فخرج رجل ممن كان صلى معه ، فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال : أشهد بالله لقد صليت مع النبى ﷺ قبل مكة ، فداروا كما هم قبل البيت وكان الذى قد مات على القبلة قبل أن تحول تجاه البيت رجالا قتلوا لم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة البقرة : (١٤٣) .

(٢) سورةالبقرة : (١٤٣) ورواه البخارى .

وسطية المكان:

والكعبة المشرفة التى هى قبلة المسلمين ، هى فى البقعة المباركة والمكان الوسط ، فهى فى وسط الكوكب الأرضى ، تتوسط دنيا الناس شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . . .

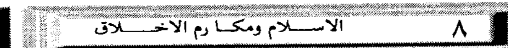
وهكذا اختار الله - تعالى - مكان رسالته ، وموقع قبلة الصلاة ، ومهبط الوحى ، هذا المكان الوسط ، الذى يتسق مع وسطية الدعوة السمحة ويتناسب مع الرسالة العامة الخالدة ، لترسل أشعة النور والهداية إلى من حولها من جميع بقاع العالم .

وهكذا اقتضت الحكمة الربانية ، أن يكون المكان وسطا فى جغرافية الأرض ، لتتمكن الدعوة أن تنتشر فى ربوع الأرض ، وتؤدى أمة الإسلام أمانة التبليغ التى حملها الله - تعالى - إياها ، حيث نزل الوحى - قرآنا وسنة - بلسان عربى مبين ، وفى أمة عربية ، وفى مكان وسط من العالم ، كل هذا يؤكد وجوب تبليغ الأمانة التى كلف الله - تعالى - هذه الأمة بها ، وشرفها بإنزال الوحى على أرضها وإرسال رسول من أنفسهم ، وقيام القبلة - الكعبة المشرفة - فى هذا المكان الطاهر والحرم الآمن فى قلب العالم . . .

وهكذا تتكشف حقيقة نزول الوحى الإلهى فى البلد الحرام ، والقبلة المشرفة داخل المسجد الحرام ، فمكة المكرمة هى مركز الكرة الأرضية ووسط العالم بأسره .

وإن قوله - تعالى - : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾[1] يحدد لهذه الأمة دورها فى النهوض

(1) سورة البقرة : (143) .

بالبشرية ورسالتها فى قيادة القافلة الإنسانية ، فبذلك تتبوأ مكانتها كخير أمة أخرجت للناس ، شاء الله لها أن تكون أمينة على رسالة السماء وشاهدة على الناس .

وحين تتخلى عن هذه الرسالة ، أو تخل بواجبها تكون قد حرمت نفسها من خيريتها ، ومن كونها الأمة الوسط ، وفقدت كيانها المعنوى ودورها الريادى بين الأمم .

ويستوجب القرآن على هذه الأمة عبادة الله ، والجهاد فى سبيل الله حق جهاده ، لأنه اختارهم واصطفاهم على سائر الأمم ، وكلفهم بشريعة لا حرج فيها ولا مشقة ، ولا ضيق ولا عسر ، إنها الحنيفية السمحة ملة إبراهيم - عليه السلام - وقد سماهم الله المسلمين من قبل فى الكتب المتقدمة ، وفى هذا - أى - القرآن قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) ﴾[١]

أى أن الله - تعالى - جعل هذه الأمة وسطا عدولاً وخيارا ،

---

(١) سورة الحج : (٧٧ ، ٧٨) .

ليكونوا شهداء على الناس وعلى جميع الأمم ، لأن جميع الأمم معترفة بفضل هذه الأمة على كل أمة سواها ، ولذلك تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة فى أن كل رسول بلغ قومه ، ويشهد رسول الله ﷺ على هذه الأمة أنه بلغها ذلك .....

وفى مقابل هذه المنزلة التى بوأها الله - تعالى - لهذه الأمة ، وفى مقابل النعمة على الأمة أن تقوم بشكر ربها - سبحانه وتعالى - وما أوجبه الله عليها من عبادة وطاعة ومن أهمها الصلاة والزكاة ، وعليهم أن يعتصموا بالله وأن يتوكلوا عليه ... ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾(1)

وسطية الزمان:

لم تأت رسالة الإسلام الخاتمة فى أول تاريخ البشرية ولا فى آخره بل جاءت فى الوسط لتكون مصدقة ومهيمنة وحارسة لما جاءت به الرسالات السماوية السالفة .

وسطية العقيدة:

ووسطية العقيدة تعنى أنها عقيدة عادلة خيرة ، يؤمن العباد فيها بالله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد إيمانا لا تمثيل فيه ولا تعطيل ، لأن الله - تعالى - ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

---

(1) سورة الحج : (٧٨) .

ويؤمن العباد بالرسول - صلوات الله وسلامه عليه - بأنه رسول الله ، وأنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة وهدى الأمة وأخرج الناس من الظلمات إلى النور ويؤمنون بأنه ليس فى درجة فوق النبوة والرسالة كما يزعم بعض الضالين فى أنبيائهم أنهم وصلوا إلى درجة الألوهية وليس فى درجة سائر البشر فهو بشر ولكنه يوحى إليه مرسل من ربه ولذا ورد عنه - صلوات الله وسلامه عليه - النهى عن الغلو فى إطرائه حيث قال : «**لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله**» ويؤمنون أنه خاتم الأنبياء والمرسلين .

وكما تتجلى وسطية العقيدة فى عدم التمثيل والتعطيل فى الصفات فإنها تتجلى أيضا فى الإيمان بالقدر ، فنرى أهل السنة يرفضون رأى الجبرية ، الذين يقولون إن الإنسان مجبور على عمله ، كما يرفضون رأى القدرية الذين يقولون بإنكار القدر ، ووقف أهل السنة والجماعة موقفا وسطا ، فيثبتون أن الله خالق كل شىء ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، ويؤمنون أيضا بأن للعباد قدرة واختيارا - أى - : أنهم يقفون موقفا وسطا بين الذين ينفون اختيار العبد والذين ينفون القدر ، فيؤمنون بأن الله على كل شىء قدير ، وأنه لا يكون فى ملكه إلا ما يريد ، ويؤمنون بأن للعبد قدرة واختيارا .

وسطية العبادة:

وجاءت عبادات الإسلام ميسرة ووسطا فلا هى صعبة يشق على العباد أن يأتوا بها ، ولا هى بسيطة جدا بحيث لا تترك فى

النفس كبير أثر ، وإنما جاءت وسطا ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾[1] .

فما كلف الله تعالى عباده إلا بما كان فى استطاعتهم أن يفعلوه ، قال تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾[2] .

فالصلاة لم يفرضها الله فى كل ساعة ، ولم تكن ركعاتها كثيرة وشاقة ولم تكن أيضا قليلة أو فى وقت واحد أو اثنين فحسب ، بل كانت وسطا تجمع بين الليل والنهار وهى خمس صلوات فى اليوم والليلة .

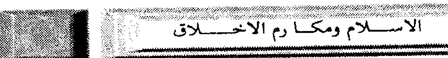
والصوم لم يكن للعام ولا لعدة شهور ، ولكن فرض الله - تعالى- صيام شهر واحد فى السنة كلها وهو رمضان ولم يكن صوم اليوم شاملا لليلته بل كان الصوم من الفجر إلى غروب الشمس .

ولم تكن الزكاة ضارة بحال الفقير ولا بحال صاحب المال ، بل فاوت الله فى مقادير الزكاة حسب الجهد الذى يبذله صاحب المال فما كان من جهود كثيرة كالنقد وعروض التجارة قل مقدار ما يخرجه صاحب المال من الزكاة وما كان أقل جهدا كالركاز يزيد مقدار ما يخرجه للزكاة ، ففى زكاة النقدين وعروض التجارة يخرج ربع العشر وفى زكاة الركاز يخرج الخمس .

وأيضا فى زكاة الزروع والثمار : فما كان منها يُسقى بالآلة يخرج منه نصف العشر . وما كان منها يسقى بغير آلة ففيه العشر . . . وهكذا كلما كان الجهد المبذول أكثر كان مقدار الزكاة أقل ، وكلما كان الجهد المبذول أقل كان مقدار الزكاة أكثر .

(1) سورة البقرة : (٢٨٦) .
(2) سورةالتغابن : (١٦) .





وعبادة الحج لم يفرضها الله ولم يوجبها إلاّ على المستطيع ولم يفرضها مرتين أو أكثر بل فرضها على المستطيع مرة واحدة فى العمر كله .

وهكذا كانت جميع التكاليف الشرعية ، لا إفراط فيها ولاتفريط ، ولا غلوّ فيها ولا تقصير ، بل جاءت وسطا يستطيع كل مكلف أن يأتى بها .

وسطية الأخلاق:

وإذا نظرنا إلى الأخلاق فى الإسلام وجدنا أنها جاءت وسطا ، فكل فضيلة من الفضائل وسط بين رذيلتين ، ففضيلة الكرم وسط بين «التبذير» إذا كان هناك إفراط ، وبين «البخل» إذا كان هناك تفريط .

وفضيلة «الشجاعة» وسط بين «التهور» إذا كان الإفراط ، وبين «الجبن» إذا كان التفريط وهكذا .

وسطية الروح والجسد:

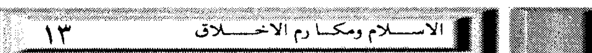
لقد عنى الإسلام برعاية الجسد ورعاية الروح ولم تتركز عنايته لجانب دون الآخر ، فدعا الإسلام إلى متطلبات الجسد فى الحلال بعيدا عما حرم الله ، ففى الحديث : « . . . وإن لجسدك عليك حقا»[١] .

ولم يحرم الزينة الحلال ولا الطيبات من الرزق ، قال – تعالى – : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ [٢] .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) سورة الأعراف : (٣٢) .



ودعا إلى وسائل القوة كالرماية والسباحة وركوب الخيل والرياضة البدنية .

كما عنى بالجانب الروحى بالعبادات والالتجاء إلى الله والتوجه إليه بالدعاء ، وتوثيق الصلة الدائمة بالله تعالى ومراقبته فى السر والعلانية وتواصل الرعاية بالبدن والروح والتوازن بينهما بحيث لايطغى جانب الجسد والمادة على الروح ، ولا يطغى جانب الروح على الجسد بل يكون الإنسان فى الوسط وهو الاعتدال بين متطلبات الجانبين ، ولقد وجه الرسول ﷺ هذه الوسطية والاعتدال بين متطلبات الروح والجسد فعندما علم انهماك عبد الله بن عمرو بن العاص فى العبادة ، قال له : «**ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ قال عبد الله : فقلت: بلى يارسول الله فقال - عليه الصلاة والسلام - : «فلا تفعل، صم وأفطر وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا وإن لزوجك عليك حقا، وإن لِزَوْرِكَ عليك حقا**»[1] «زورك» : أى ضيفك .

وسطية المنهج فى الدعوة:

وجاء منهج الدعوة الإسلامية وسطا ، لا إكراه فيه ولا تشديد ولا تهاون فيه ولا تفريط وإنما هو دعوة تتناسب مع معادن الناس وأحوالهم ، وتقوم على الحكمة والموعظة الحسنة ، قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (٢) .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) سورة النحل : (١٢٥) .

كما يقوم منهج الدعوة على اللين فى القول ، وعدم التشدد أو التزمت فقد قال الله تعالى لموسى وهارون حينما أرسلهما إلى فرعون : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ (١) .

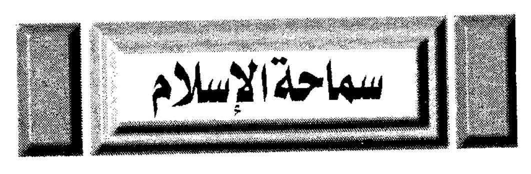
ولقد وعظ أحد الواعظين المأمون فأغلظ له فى القول ، فقال : **يارجل (ارفق) فقد بعث الله من هو خير منك** - يريد موسى وهارون عليهما السلام - **إلى من هو شَرٌ مِنِّي** - يريد فرعون - **فأمرهما بالرفق واللين فقال - سبحانه -** : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾(٢) .

وتقتضى وسطية المنهج الدعوة باللين والتدرج والتؤدة ، وعدم التفريط والطفرة والعجلة .

داويتَ متئداً وداووا طفرةً وأخفُ من بعض الدواء الداءُ

فالتدرج فى الدعوة وعدم الطفرة هى سمة المنهج الإسلامى فى الدعوة وقد روى عن عمر بن عبد العزيز أن ابنه عبد الملك قال له : **مالك لا تنفذ الأمور؟ فوالله ما أبالى لو أن القدور غلت بى وبك فى الحق** . فقال له عمر : **«لا تعجل يابنى، فإن الله ذم الخمر فى القرآن مرتين وحرمها فى الثالثة، وإنى أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة فيدفعوه جملة ويكون من ذا فتنة».**

(١ ، ٢) سورة طه : (٤٤) .



سماحة التشريع الإسلامى سرّ انتشاره

من أبرز سمات التشريع الإسلامى : سماحته ويُسر أحكامه ، فليس فيه حرج ولا مشقه ، ولا عسر ولا تنفير ، بل فيه اليُسْر والرحمة ، والخير والتبشير . والذى يتصفح تعاليم الإسلام يرى هذه الحقيقة واضحة بأجلى معانيها ، وأوضح صورها ونماذجها فى العقيدة والعبادة والمعاملة .

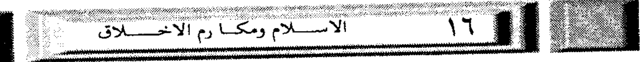
السماحة فى العقيدة :

فليس فيها تعقيد ولا غموض ، ولا نظرية جَانحةٌ ولا فلسفة حائرة ؛ بل تتركز عقيدته فى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر والقدر خيره وشره حلوه ومُرّه . .

وليس فى عقيدته إيمان بما جاء به البشر ، بل إيمان بما أنزل الله على رسوله : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (1) .

وليس فى عقيدته عصبية ممقوتة بل احترام لما أنزله الله وإيمان به ، واحترام لجميع رسل الله – تعالى – وإيمان بهم دون تفريق بين أحد من رسله : ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ (2) .

(1 ، 2) سورة البقرة : (285) .



السماحة فى العبادات:

أما فى العبادة: فهى عبادة ميسورة ، فى وسع كل إنسان أن يأتى بها ، فلا صعوبة فيها ، ولم يكلف الله - تعالى - عباده إلا بما هو فى وسعهم : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ (١) .

وقد شرع الله العبادة وأحكامها ومع يسرها ، فقد رفع الحرج عنها : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾(٢) .

السماحة فى الوضوء والصلاة:

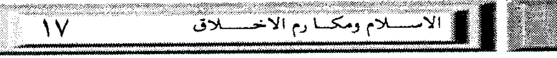
فمن لم يستطع الوضوء بالماء لتعب أو مرض أو جرح يمنعه من الماء ، أو لأنه لم يجد الماء بل فقده ، شرع الله له التيمم بالتراب الطاهر : ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ (٣) .

وشرع الله الصلاة وما فيها من قيام وقعود ، وركوع وسجود ، ومع يسر هذه العبادة ، فقد رفع الحرج عنها ، ورخص لغير القادر على القيام أن يصلى من قعود ، ولغير القادر على أدائها من قعود أن يؤديها مضطجعا ولغير القادر على أدائها مضطجعا أن يؤديها بإشارة رأسه ، ولغير القادر على ذلك أن يشير برموش عينيه ، ولغير القادر على ذلك . . يجرى أركان الصلاة على قلبه ، ولا يتركها مادام عقله ثابتا ؛ لأنها الصلة بينه وبين خالقه ، فانظر إلى أى مدى وصل التيسير ورفع الحرج ، أن يكتفى بأن يجرى الأركان على قلبه

(١) سورة البقرة : (٢٨٦) .

(٢) سورةالحج : (٧٨) .

(٣) سورة المائدة : (٦) .



عند عجزة عن الحالات السابقة ؟ إنها الرحمة الإلهية :﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (١) .

السماحة فى الصوم:

فقد رخص الله تعالى للمريض والمسافر سفرا طويلا أن يفطر ، ويقضى الصوم فى أيام أخرى قال تعالى :﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) ﴾ (٢) وكذلك رخص للحامل والمرضع فى الإفطار والقضاء من أيام أخرى .

السماحة فى الحج:

فإنه لم يشرعه فى كل شهر ولا فى كل سنة ، بل أوجبه الله تعالى مرة واحدة فى العمر كله ، ولم يفرضه على الجميع بل على المستطيع فحسب ، قال سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ (٣) .

السماحة فى المعاملات:

إذا نظرنا إلى سماحة الإسلام فى المعاملات ، وجدنا الهدى

(١) سورة البقرة : (١٨٥) . (٢) سورة البقرة : (١٨٤) .
(٣) سورة آل عمران : (٩٧) .

النبوى ، يرشد إلى السماحة فى كل المعاملات من بيع أو شراء أو اقتضاء ، عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : «رحم الله رجلا سمحا إذا باع ، وإذا اشترى ، وإذا اقتضى»[1] .

وإقرارًا لروح السماحة والتراحم بين العباد فى معاملاتهم ، يُنبئنا الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - عن ثمرة ذلك فى الآخرة ، حيث يتجاوز الله - تعالى - عن عباده الذين يتجاوزون ، ويتسامحون مع عباد الله ، روى البخارى بسنده أن حذيفة - رضى الله عنه - قال : قال النبى ﷺ : **«تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم، فقالوا : أعملتَ من الخير شيئا؟ قال: كنتُ آمر فتيانى أن يُنظروا الموسر، ويتجاوزوا عن المعسر. قال: فتجاوز الله عنه». وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال: «من أراد أن تستجاب دعوته، أو تكشف كربته فليفرج عن معسر».**

سماحة الإسلام مع غير المسلمين:

كما راعى الإسلام السماحة فى العقيدة والعبادة والمعاملات ، فإنه راعى السماحة فى معاملة المسلمين لغيرهم : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) ﴾ [2] . بل قرر الإسلام حماية أهل الذمة والمستأمنين ماداموا فى دار الإسلام ، وهذا الحق الذى قرره الإسلام لحمايتهم ، يجب أن يعمل به أهل

(١) رواه البخارى .

(٢) سورة الممتحنة : (٨) .

الأديان الأخرى فى معاملة الأقليات الإسلامية ، حماية لهم وتمكينا لعبادتهم ، حتى يتم التعاون بين عنصرى الأمة .

ولتنظر كيف أكد الإسلام على حقوق أهل الكتاب والمعاهدين قال رسول الله ﷺ : «**ألا من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ شيئا بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة**»[1].

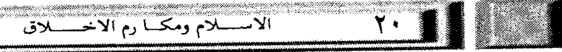
ومن وصايا سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنه - : (**أوصيكم بذمة الله ، فإنه ذمة نبيكم ورزق عيالكم**) . . وإرساءً لأسس التعاون والتواصل بين عنصرى الأمة أحل الله طعامهم فقال : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾[2] . وشرع الزواج بالمرأة الكتابية ، ولا رابطة فى الظواهر الاجتماعية أقوى من ذلك ، قال تعالى : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾[3] .

ومما يدل على انتشار الإسلام بسماحته وحسن معاملة المسلمين لغير المسلمين ، هذه الواقعة التى حدثت بين الإمام على ابن أبى طالب - كرم الله وجهه - ، وبين رجل من أهل الكتاب ، وذلك عندما فقد الإمام على - رضى الله عنه - درعه ، ثم وجدها عند هذا الرجل الكتابى ، فجاء به إلى القاضى شريح قائلا : **إنها درعى ولم أبع ولم أهب** . فسأل القاضى شريح الرجل الكتابى قائلا : «**ماتقول فيما يقول أمير المؤمنين؟**».

---

(١) رواه البيهقى .

(٢ ، ٣) سورة المائدة : (٥) .



فقال الرجل : **ما الدرع إلا درعى، وما أمير المؤمنين عندى بكاذب:** فالتفت القاضى شريح إلى الإمام على - رضى الله عنه - يسأله .

يا أمير المؤمنين هل من بيّنة ؟ فضحك على وقال : **أصاب شريح** ما لى بينة ، فقضى بالدرع للرجل ، وأخذها ومشى ، وأمير المؤمنين ينظر إليه ، إلا أن الرجل لم يخط خطوات حتى عاد يقول : **أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء .. أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه فيقضى عليه ؟ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين. انبعث الجيش وأنت منطلق إلى صفين فخرجت من بعيرك الأورق** ، فقال الإمام على رضى الله عنه : **(أما إذ أسلمت فهى لك)** .

وهكذا نرى كيف وصلت سماحة الإسلام إلى هذا المدى الذى يقف فيه أمير المؤمنين نفسه أمام القاضى ، مع رجل من أهل الكتاب ، ومع أن أمير المؤمنين على حق ، فإن القاضى طالبه بالبينة ، وهذا أمر جعل أمير المؤمنين يضحك ؛ لأنه على حق ، وليس معه بينة ، وواضح أنه المدعى ، والبينة على المدعى واليمين على من أنكر ، ثم تكون النهاية : أن يحكم القاضى للرجل بالظاهر ، حيث لم تظهر البينة . . إن هذه المعاملة السمحة ، التى لا يُفَرّق فيها بين أمير وواحد من الرعية من أهل الكتاب ، جعلت الرجل يفكر فى هذا الدين ويتملكه الإعجاب بهذا الدين ، الذى يقف فيه أمير المؤمنين أمام قاضيه ، ويحكم قاضيه عليه لا له ، بظاهر ما أمامه وإن كان ذلك خلاف الواقع ، فأنطق الله الرجل أن يقول : **أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء** . . وقال : أشهد أن

لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . . ويعترف ويقر بالحقيقة قائلا : **الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين، انبعث الجيش، وأنت منطلق إلى صفين فخرجت من بعيرك الأورق** ، ولكنه وقد اعترف وأحب الإسلام ودخل فيه - جعل أمير المؤمنين يتنازل عن الدرع للرجل قائلا : (**أما إذ أسلمت فهى لك**) .

إنها صورة من صور القضاء فى قمة عدالته ، حيث يسوى بين هذا الرجل وبين أمير المؤمنين ، وصورة سماحة الإسلام فى ذروتها حيث كان الحكم بالظاهر وعلى أمير المؤمنين لا له ، إن مثل هذه المعاملة السمحة مع غير المسلمين ، هى التى قربت الإسلام إلى الناس ، وجعلتهم يدخلون فى دين الله أفواجا .

أما صور التعصب الممقوت التى يساء فيها إلى الإسلام ، فإنها لا تدفع الناس إلى الدخول فيه ، بل تدفعهم إلى النفور منه .

ومن أجل هذا كان القرآن الكريم يجلى هذه الحقيقة : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [1] وأيضا لا حرج فيه ولا مشقة : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [2] .

إنه دعوة إلى اليسر والتسامح لا إلى العسر والغلظة : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [3] .

---

(١) سورة البقرة : (٢٥٦) .
(٢) سورة الحج : (٧٨) .
(٣) سورة البقرة : (١٨٥) .

وإذا كان التسامح وحسن المعاملة وعدم التعصب ، أمورًا مطلوبة من المسلمين فى معاملتهم مع غير المسلمين ، فإنها كذلك مطلوبة من غير المسلمين مع المسلمين ، حتى تتم معاملة كل طرف للآخر فى دائرة التعاون والتضامن ، فلا يسىء أحدهم إلى الآخر ، بل يتعاملون بروح الفريق الواحد فى الوطن الواحد .

أثر سماحة الإسلام:

إن سر انتشار الإسلام ، واعتناق الناس له ، ودخولهم فى دين الله أفواجا ، هو منهاجه الربانى ، الذى أنزله رب العزة - سبحانه وتعالى - على رسوله- صلوات الله وسلامه عليه - هذا المنهاج الذى أمر الله - تعالى - فيه بالدعوة بالحكمة ، والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن .

لا إكراه فى الدين:

إنه منهج دعوة ، وليس إكراها ولا تشددا ولا عنفا قال الله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (١) وما أقر الإسلام العنف ولا التشدد : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (٢) .

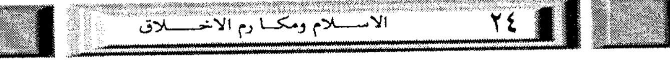
وقال سبحانه لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون

(١) سورة النحل : (١٢٥) .
(٢) سورة البقرة : (٢٥٦) .

الذى ادعى الألوهية : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (44) ﴾ (1) وعندما خافا أن يبطش بهما ، بين الله - تعالى - أنه معهما يسمع ويرى ويؤيدهما فى دعوتهما ، فالله سبحانه يؤيد كل داع يستجيب لمنهاجه ، ويدعو بالقول اللين الذى لا ينفر ، فقال تعالى - ردا عليهما - : ﴿ قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (46) ﴾(2) .

وقد ضرب رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - أروع الأمثلة فى التسامح ، وكان لين الجانب ، طيب المعاملة سمحا فى كل الأمور حتى مع أعدائه الذين حاربوه من قبل ، كما حدث مع ثمامة بن أثال الذى عرض عليه الإسلام ثلاث مرات ، وكان لايقبل فى كل مرة ، حتى أمر النبى ﷺ بإطلاق سراحه ، فكان هذا العفو والتسامح سببا فى دخول الرجل فى الإسلام وقال : **أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله** . . . وأقر الرجل بما كان عليه قبل هذه المعاملة السمحة من قبل ، من عداوة وكراهية للإسلام فقال : **إنه ما كان من بلد أبغض إلىّ من بلدك، وقد أصبح أحب البلاد إلىّ، وما كان من وجه أبغض إلى من وجهك، وقد أصبح أحب الوجوه إلى، وما كان من دين أبغضَ إلىّ من دينك، وقد أصبح أحب الأديان إلىّ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله**

(1) سورة طه : (44) .
(2) سورة طه : (46) .



وأشهد أنك رسول الله ، ودخل الإسلام بفضل سماحة النبى - عليه الصلاة والسلام - .

من أجل هذا قاوم الإسلام العصبية ، ودعا إلى التسامح ففى الحديث : «**ليس منا من دعا إلى عصبية**» ولم يقتصر تسامح الإسلام مع أهل الكتاب فحسب ، بل إنه شمل حتى المشركين ، فدعا الإسلام إلى منحهم الجوار والأمان حين يطلبه أحد المشركين ، قال الله - تعالى - : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾[1] .

سيادة القانون:

بل أن الإسلام يعتبر ضرب الإنسان الفاجر أو المعاهد دون ذنب أو سبب جريمة يتبرأ الرسول ﷺ من صاحبها فيقول : «**ومن خرج على أمتى يضرب برها وفاجرها لا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفى لعهد ذى عهدها، فلست منه وليس منى**»[2] وذلك حتى لا يأخذ الناس بعضهم بعضا بالظن ، وحتى لا تكون الحياة فوضى ؛ فالإسلام لا يقر الظلم ولا العدوان ، حتى على الفاجر أو من كان معاهدا ، فالفاجر فجوره على نفسه وحسابه على الله ، ولسنا مطالبين حياله إلا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبمراتب مقاومة المنكر التى أخبر بها الرسول ﷺ حين قال :

---

(١) سورة التوبة : (٦) .

(٢) رواه مسلم .

«من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»(1).

وليس لأحد كائنا من كان أن يعطى نفسه الشرعية والحق فى ضرب الناس، أو إكراههم باسم الإسلام، فإنه بهذا التصرف يسىء إلى الإسلام وإلى سماحته.

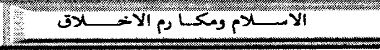
عدالة الإسلام:

وقد عنى الإسلام برعاية أهل الكتاب، فقرر سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - لهم كفالة فى بيت مال المسلمين، فقد **روى أنه مر بباب جماعة، فوجد سائلا يسأل - وهو شيخ كبير ضرير - فسأله قائلا: من أى أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودى، فسأله: ما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن، فأخذ عمر بيده إلى منزله، وأعطاه، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال له: انظر هذا وأضرابه، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته، ثم نخذله عند الهرم.**

وما حدث فى تاريخ سلفنا إهانة أحد من أهل الذمة، بل إن حدث أى تجاوز كان يعالجه الإسلام فى الحال، **فعندما شكا إلى عمر أحدُ الأقباط ابنَ والى مصر؛ عمرو بن العاص الذى لطم ابنه عند ما غلبه ابن القبطى فى السباق، وقال: أنا ابن الأكرمين، أسرع عمر رضى الله عنه بإحضار والى مصر وابنه إلى مكة فى موسم الحج وأعطى عمر الدرة لابن القبطى وأمره أن يقتص من ابن الأكرمين، ثم قال**

---

(1) رواه مسلم.

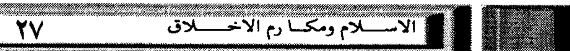




لعمرو كلمته المأثورة: «متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا».

وقد أقام الإسلام العدل بين عنصرى الأمة من المسلمين وغير المسلمين ، ومن رسالة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى قاضى القضاة أبى موسى الأشعرى قال له : (**آس بين الناس فى وجهك ومجلسك وقضائك، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك**) فلا يصح التفرقة بين المتخاصمين ، حتى ولو كان أحدهما غير مسلم ، **وقد روى أن يهوديا خاصم سيدنا عليا بن أبى طالب رضى الله عنه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فنادى أمير المؤمنين عليا رضى الله عنه بقوله: (قف يا أبا الحسن، فبدأ الغضب على علىّ رضى الله عنه، فقال له عمر - رضى الله عنه - : أكرهت أن نسوى بينك وبين خصمك فى مجلس القضاء؟ فقال على - رضى الله عنه - : لا، ولكني كرهت منك أن عظمتنى فى الخطاب، فناديتنى بكنيتى، ولم تصنع مع خصمى اليهودى ماصنعت معى).**

وهكذا نرى كيف عامل سلفنا أهل الكتاب ، وكيف أظهروا سماحة هذا الدين الذين لا يقر العصبية ، ولا يرضى الظلم حتى لغير المسلمين ، بل يدعو إلى التسامح والعدل معهم . . .

وهذا المنهاج المتسامح للإسلام مع أهل الأديان الأخرى هو سر عظمة الإسلام ، وسر ذيوعه وانتشاره فى ربوع المعمورة .



أخوة الإيمان في الإسلام:

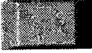
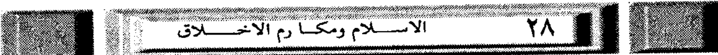
قال الله تعالى :﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) ﴾[١]

فى هذه الآية الشريفة ، يقرر الإسلام أخوة الإيمان ، وأنها لاتتقيد بعلاقة النسب فإن أخوة النسب تنفصم بمخالفة الدين ، ولكن أخوة الدين لا تنفصم بمخالفة النسب .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال رسول الله ﷺ : «**ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولاتناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا**» والتحسس : هو الاستماع لحديث القوم ، والتناجش : هو أن تزيد فى ثمن السلعة دون رغبة فى شرائها لتحريض الغير عليها ، وفى رواية أخرى بلفظ مسلم يبين الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - حقوق هذه الأخوة وواجباتها : «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى هاهنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم حرام دمه وماله وعرضه**».

ومن الواجبات المترتبة على أخوة الإيمان الإصلاح بين المسلمين كما جاء فى الآية الشريفة :﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾[٢] . . فالإصلاح بين كل مسلمين أو طائفتين ، واجب تمليه أخوة الإيمان وقد مهدت الآية الشريفة طريق الإصلاح بالتزام

(١ ، ٢) سورة الحجرات : (١٠) .

التقوى ، حتى لا يحيد المصلحون ولا يحابى بعضهم بعضا ، بل يكون العدل رائدهم والتقوى طريقهم ، وبهذا تتحقق الغاية الكريمة وهى رحـمـة الله بالمؤمنين دنيـا وأخـرى : ﴿ وَاتَّقُـوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [1] ويدعو القرآن الكريم جميع المؤمنين أن يطهروا البيئة الإسلامية من رذائل شتى :

١ - منها الرذائل الظاهرة التى تتعلق بالجوارح كالسخرية واللمز والتنابذ بالألقاب .

٢ - ومنها الرذائل الباطنة التى تتعلق بالمشاعر كالظن .

أما الأولى الظاهرة: فيقول فيها القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لايَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ [2] فينهى الله تعالى عن سخرية بعض الناس ببعض ، فعسى من سخروا منه أن يكون خيرا منهم عند الله - تعالى - ، فى عقيدته وفى عمله وفى باطن أمره فإن مقاييس الخيرية ليست فى المظهر ، ولا فى الشكل ، ولكنها فقط فى التقوى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [3] وروى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : **«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» .**

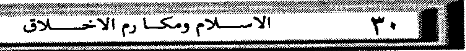
---

(١) سورة الحجرات : (١٠) .
(٢) سورة الحجرات : (١١) .
(٣) سورة الحجرات : (١٣) .

وإذا نظرنا إلى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ (١) الآية نرى أنه ورد فى سبب نزولها آراء منها : أنها نزلت فى وفد بنى تميم عندما استهزءوا بفقراء الصحابة أمثال عمار وبلال وخباب وابن فهيرة وصهيب وسلمان وسالم مولى أبى حذيفة وغيرهم ، لما رأوا من رثاثة حالهم .

وقيل : نزلت فى سخرية الغنى بالفقير ، وقيل فى عكرمة بن أبى جهل ، فعندما جاء إلى المدينة مسلما كان بعض المسلمين إذا رأوه قالوا : ابن فرعون هذه الأمة ، فشكا ذلك إلى الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - فنزلت هذه الآية ، وقال ابن عباس نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس كان فى أذنه وقر فإذا سبقوه إلى مجلس النبى ﷺ أوسعوا له إذا أتى حتى يجلس إلى جنبه ليسمع ما يقول ، فأقبل ذات يوم وقد فاتته من صلاة الفجر ركعة مع النبى ﷺ فلما انصرف النبى - عليه الصلاة والسلام - أخذ أصحابه مجالسهم منه فربض كل رجل منهم بمجلسه وعضوا فيه - أى لزموه - فلا يكاد يوسع أحد لأحد حتى يظل الرجل لايجد مجلسا ، فيظل قائما . فلما انصرف ثابت من الصلاة تخطى رقاب الناس ويقول : تفسحوا تفسحوا ، ففسحوا له حتى انتهى إلى النبى ﷺ وبينه وبينه رجل فقال له : تفسح . فقال له الرجل : قد وجدت مجلسا فاجلس . فجلس ثابت من خلفه مغضبا ثم قال : من هذا ؟ قالوا : فلان . فقال ثابت : ابن فلانة . يعيره بها يعنى أما له فى الجاهلية فاستحى الرجل فنزلت الآية «من تفسير القرطبى» . .

(١) سورة الحجرات : (١١) .

وقد نصت الآية على النساء كذلك وأفردتهم بالذكر فى النهى عن السخرية ، وذلك لأن السخرية تقع كثيرا منهن . «**فإنهن خلقن من ضلع أعوج وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه**» ولذا نص عليهن فى قوله تعالى :﴿ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾(١) وقد جاء فى سبب نزولها أن امرأتين من أزواج الرسول ﷺ سخرتا من أم سلمة عندما ربطت خصريها بثوب أبيض وسدلت طرفيها خلفها فكانت تجرها ، فقالت عائشة لحفصة - رضى الله عنهما - : انظرى ما تجر خلفها كأنه لسان كلب . فهذه سخريتها ، وقال أنس وابن زيد : نزلت فى نساء النبى ﷺ عيرن أم سلمة بالقصر . وقال عكرمة عن ابن عباس : أن صفية بنت حيى بن أخطب أتت رسول الله ﷺ ، فقالت : يارسول الله إن النساء يعيرننى ؛ فأنزل الله هذه الآية . «من تفسير القرطبى» . .

وقد نهى الله - تعالى - كذلك عن (اللمز وهو العيب) ، ويكون تعبيرا باليد ، أو العين أو اللسان أو الإشارة .

فأما الهمز فيكون باللسان . قال - تعالى - :﴿ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ (٢) ويدل هذا التعبير الحكيم على أن المؤمنين نفس واحدة فلا يليق بهم أن يعيب بعضهم بعضا ، وكما لا يعيب المؤمن نفسه لا ينبغى أن يعيب غيره ؛ فالمؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

ومن الرذائل التى نهى عنها : التنابز بالألقاب . قال - تعالى - :

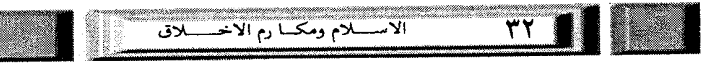
(١ ، ٢) سورة الحجرات : (١١) .

﴿ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ ﴾[1] قيل : إنها نزلت فى بنى سلمة فقد قدم رسول الله ﷺ وليس رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة ، فجعل رسول الله ﷺ يقول يافلان فيقولون : مه يارسول الله إنه يغضب من هذا الاسم فنزلت الآية ﴿ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ ﴾ [2] وقال الحسن ومجاهد : كان الرجل يعير بعد إسلامه بكفره ، أن يقال له : يايهودى يانصرانى فنزلت الآية . وقال قتادة : وقول الرجل للرجل يافاسق ، يامنافق .

قال - تعالى - : ﴿ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ ﴾ [3] يقول ابن زيد أى بئس أن يسمى الرجل كافرا أو زانيا بعد إسلامه وتوبته . . وقيل من لقب أخاه أو سخر منه فهو فاسق ، أما بعض الصفات التى يكون ظاهرها الكراهة ، ولكن لايراد بها العيب حين التحدث بها فلا بأس بها . وقد سئل عبد الله بن المبارك عن الرجل يقول : حميد الطويل ، وسليمان الأعمش ، وحميد الأعرج ، ومروان الأصفر ، فقال إذا أردت صفته ولم ترد عيبه فلا بأس به .

وقد ختم الله - تعالى - الآية الكريمة التى نهى فيها عن تلك الرذائل بتهديد من تسول له نفسه عن الاسترسال فى مثل هذه المعايب بأنه قد وقع فى الهلاك وأصبح من الظالمين لأنفسهم لارتكابها فقال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[3] وإذا كان التنابز بالألقاب مما يعيب المسلم ويمزق ود الصدور ، فإن

(١ ، ٢ ، ٣) سورة الحجرات : (١١) .



بديله وهو نداء المسلم لأخيه بأحب الأسماء مما يصفى له ود أخيه يقول - عليه السلام - : «ثلاث يصفين لك ود أخيك تسلم عليه إذا لقيته وتوسع له فى المجلس وتدعوه بأحب أسمائه إليه» .

ومثال النوع الثانى : وهى الرذائل الباطنة التى تتعلق بالقلب والشعور : «ظن السوء» وقد حذر الله تعالى من الظن فى قوله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾(1)

وقد نزلت هذه الآية الكريمة كما قال أبو عبد الله القرطبى فى رجلين من أصحاب النبى ﷺ اغتابا رفيقهما وذلك أن النبى ﷺ كان إذا سافر ضم الرجل المحتاج إلى الرجلين الموسرين فيخدمهما فضم سلمان إلى رجلين ، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فنام ، ولم يهيئ لهما شيئا فجاءا فلم يجدا طعاما وإداما فقالا له : انطلق فاطلب لنا من النبى ﷺ طعاما وإداما ، فذهب فقال له النبى ﷺ : اذهب إلى أسامة بن زيد فقل له إن كان عندك فضل من طعام فليعطك ، وكان أسامة خازن النبى ﷺ فذهب إليه فقال أسامة : ما عندى شىء ، فرجع إليهما وأخبرهما ، فقالا : قد كان عنده ولكنه بخل ، ثم بعث سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئا فقالا لو بعثنا سلمان إلى بئر سميحة وهى بئر قديمة بالمعينة بها ماء غزير - لغار ماؤها - ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة شىء فرآهما النبى ﷺ فقال : مالى أرى خضر اللحم فى أفواهكما ؟ فقالا : يانبى الله والله ما أكلنا فى يومنا هذا لحما ولا غيره . فقال : ولكنكما ظللتما

---

(1) سورة الحجرات : (12) .

تأكلان لحم سلمان وأسامة فنزلت الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ ﴾[1] . . وجاء فى الصحيحين عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال : «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**»[2] . . والظن الذى تحذر الآية منه هو الظن الذى يقوم على اتهام لا أساس له ولا سبب يوجبه .

ومن الرذائل المنهى عنها «التجسس» وهو البحث عما يكون خفيا عن الإنسان كمن يتهم إنسانا بفاحشة أو بشرب الخمر مثلا دون أن يبدو له ما يقتضى ذلك أو دون أن تظهر له علامة على تحقيق ظنه ، كأن المظنون منه من أهل الصلاح والتقوى فإن ظن السوء به حينئذ يكون محرما هذا بخلاف من عرف واشتهر بين الناس بمخالفة الشرع والمجاهرة بالمعاصى فلا يكون الظن به محرما .

قال - عليه الصلاة والسلام - : «**إن الله حرم من المسلم دمه وعرضه وأن يظن به ظن السوء**».

هذا ويترتب على الظن التجسس ثم الغيبة وذلك لأن مجرد التهمة يكون سببا فى البحث عما ساور الإنسان من خاطر فيحاول التجسس ليتحقق مما يظنه فينتقل من درجة الظن إلى درجة التجسس ثم يدعوه وقوفه بالتجسس على بعض ما يعلم أو ما لا يعلم إلى غيبة أخيه فينتقل إلى درجة أسوأ وحالة أكبر وهى الغيبة وهكذا . .

وينقى الإسلام جو المجتمع على مختلف طبقاته ويوضح كيف

(1) سورة الحجرات : (12) .
(2) رواه البخارى ومسلم .

يتفاقم الخطر من جراء الظنون السيئة بين الناس بعضهم مع بعض ، بل وبين الحاكم والمحكوم ، فحين يبتغى الحاكم الريبة فى الناس يفسد ذات بينهم عن أبى أمام عن النبى ﷺ قال : «**إن الأمير إذا ابتغى الريبة فى الناس أفسدهم**» ويوضح الرسول ﷺ خطر الغيبة والتجسس ويكمل بيان نتائجهما السيئة التى لاتقتصر على الأخرى فحسب بل إن المغتابين والمتجسسين ينالون جزاءهم فى الدنيا وعقابهم فيها قبل الآخرة ، قال ﷺ : «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه فى بيته**».

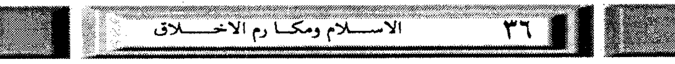
وقد كان سلفنا الصالح يدركون خطر التجسس ، ومدى حرمته فكانوا يبتعدون عن التجسس وعن تتبع أسرار الناس حتى ولو ترتب على ذلك إقامة حكم من أحكام الشريعة ، أو إقامة حد من حدود الله ، قال عبد الرحمن بن عوف : حرست ليلة مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالمدينة إذا تبين لنا سراج فى بيت بابه مجاف على قوم لهم أصوات مرتفعة ولغط ، فقال عمر : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهما الآن شرب فما ترى؟ قلت : أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه . . قال الله تعالى : «وَلَا تَجَسَّسُوا» وقد تجسسنا وانصرف عمر وتركهم .

ومن الرذائل المنهى عنها «الغيبة» قال الله- تعالى - : (وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً) وقد فسر الرسول ﷺ معنى الغيبة ، فعن أبى هريرة أن الرسول ﷺ قال : «**أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قيل: أفرأيت إن كان فى**

أخى ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته»[1].

وقد رأى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء والمعراج صورة محسوسة لأولئك المعتدين المغتابين ، وكيفية عذابهم ، وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : **لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحم الناس ويقعون فى أعراضهم**[2] وقد صور القرآن الكريم صاحب الغيبة فى هيئة مستقذرة ، وصورة تدل على خسة الطبع ودناءة النفس وفساد القلب ، قال - تعالى - : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾[3] فصور الله تعالى الغيبة بأكل الميتة لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه كما أن الحى لا يعلم بغيبته ممن اغتابها ، ولننظر بعد إلى تصوير الرسول ﷺ للغيبة : **روى أبو هريرة - رضى الله عنه - أن ماعذا جاء إلى النبى ﷺ فشهد على نفسه بالزنا فرجمه الرسول ﷺ ، فسمع نبى الله ﷺ رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر: انظر إلى هذا الذى ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلاب. فسكت عنهما، ثم سار ساعة حتى مر بجيفة حمار شائل برجله فقال: «أين فلان وفلان؟» فقالا: نحن يا رسول الله ، قال: انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار، فقالا: يا نبى الله تأكله ومن يأكل من هذا؟ قال: فما نلتما من عرض أخيكما أشد من الأكل منه، والذى نفسى بيده إنه الآن لفى أنهار الجنة وينغمس فيها»**[4].

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه مسلم .
(٣) سورة الحجرات : (١٢) .
(٤) رواه مسلم .

وحكم الغيبة: أنها من الكبائر قال ﷺ : «دماؤكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام». واتفق العلماء على أنها من الكبائر يجب التوبة إلى الله منها ، واختلفت الآراء : هل يستحل المغتاب أم لا ؟

١ - **فقال بعض العلماء:** ليس عليه استحلاله ، وإنما هى خطيئة بينه وبين ربه واستدل أصحاب هذا الرأى بأنه لم يأخذ شيئا من ماله ، ولما أصاب من بدنه ما ينقصه فليس فى ذلك مظلمة ويستحلها منه وإنما المظلمة ما يكون فى المال والبدن .

٢ - **وذهبت فرقة أخرى:** إلى أن الغيبة مظلمة ، وكفارتها الاستغفار لصاحبها الذى اغتابه ، واستدلوا على ذلك بما روى عن الحسن : **كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته.**

٣ - **وذهبت فرقة ثالثة:** إلى أن الغيبة مظلمة ، وعلى صاحبها الاستحلال منها ، واستدلوا على ذلك بما رواه أبو هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : **«من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شىء ليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون له دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه».**

والذى نرجحه : هو الرأى الثالث القائل : بأن على الذى اغتاب الاستحلال من غيبته لحديث البخارى ، فهو يدل على التحليل وحديث الرسول ﷺ هو الحجة والبيان الصحيح ولأن

التحليل كذلك يدل على التعاطف والتراحم وهو من قبيل العفو قال الله – تعالى – : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [1] . اللهم إلا إذا ترتب على الاستحلال خطأ شديد ، وخوف أن يجر إلى اندلاع فتنة كبرى فإنه حينئذ يمسك عن الاستحلال حتى يواتيه الوقت الملائم له ويقوم بالتوبة والاستغفار لأخيه .

وأما الرأيان : الأول والثانى ، فنرى أن أصحاب الرأى الأول ينفون الاستحلال – متعللين بأنه لم يصب مالا ولا بدنا فليس فى ذلك مظلمة والحق أن إجماع العلماء منعقد على أن القاذف للمقذوف مظلمة بأخذه بالحد حتى يقيمه عليه وذلك ليس فى البدن ولا فى المال ، فهذا دليل على أن الظلم فى العرض والبدن والمال . وأما الرأى الثانى القائل أنها مظلمة يستغفر لصاحبها ففيه تناقض لأن قولهم «مظلمة» يثبتون ظلامة المظلوم وإذا ثبتت لم يزلها عن الظالم إلا إحلال المظلوم له ، وهذه الأحكام سارية فى سائر المظالم التى يتوب منها المسلم . وأما صاحب الهوى والفاسق المعلن فسقه والإمام الجائر فكل هؤلاء لا غيبة فى حقهم ؛ فإن من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له بل إن ذكرهم بما هم عليه يحذر ويكشف عوارهم ، قال ﷺ : **«اذكروا الفاجر بما فيه كى يحذره الناس»** وإذا كانت واجبات الأخوة فى الدين تقتضى تكريم المؤمن ونفى كل الرذائل عن دائرة نفسه ومجتمعه وتحتم احترام المسلم لأخيه ومساعدته له وعدم التعرض بما يسيئه فى نفسه أو ماله أو عرضه .

إذا كانت هذه وغيرها من أسمى المبادئ لتكريم الإنسان المسلم

(١) سورة الشورى : (٤٠) .

فإن الله - تعالى - قد وسع دائرة هذه الأخوة فلم يجعل للأسرة الإسلامية حدودا تحدها قرابة أو نسب أو زمان أو مكان أو بيئة أو مجتمع ، بل إن الإسلام فتح لأتباعه آفاق التعارف والتآلف .

واستهدف من وراء جعلهم شعوبا وقبائل التعرف المثمر الذى يكمل بعضهم بعضا فى إطاره المشرق .

ولم يجعل من اختلافهم فى اللون أو اللغة أو المال أو القوة سببا للتمايز والتعاظم فنفى أن تكون هذه الأسباب أصولا للتكريم أو قواعد للتعظيم وإنما جعل المعيار الحقيقى الذى توزن به منازلهم ودرجاتهم منحصرا فى شىء واحد هو (تقوى الله) .

قال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (1) .

(1) سورة الحجرات : (١٣) .



إذا نظرنا إلى حديث سؤال جبريل للنبى ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان وعلم الساعة ، وجدنا أنه ﷺ عندما سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان قال :

معنى الإحسان :

(... **أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**)[1].

و «الإحسان» : مصدر ، ويتعدى فعله بنفسه وبغيره .

وتقول : أحسنت عملى أى أتقنته ، وتقول : أحسنت إلى الفقير بمعنى : تصدقت عليه ، أو أوصلت النفع له .

وهكذا نرى أن للإحسان معنيين :

الأول: بمعنى الإتقان ، وهذا هو المعنى المفهوم من الحديث : «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» لأنه يفيد إتقان العبادة لله - تعالى - .

الثانى : بمعنى توصيل النفع إلى النفس أو إلى الغير ، فتقول أحسنْتُ إلى فلان إذا أوصلت الخير والنفع إليه .

يمكن أن يتحقق المعنيان فى العبادة ، ففيها الإتقان ، وفيها توصيل النفع .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

الإحسان فى العبادة:

الإحسان فى العبادة يشمل المعنيين

أما الإتقان فى العبادة : فيكون بالإخلاص فيها ، والبعد عن المراءاة ، وكثرة الخشوع والخضوع لله سبحانه .

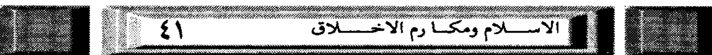
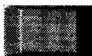
وأما توصيل النفع فواضح أن المحسن لعبادته أحسن إلى نفسه حيث قدم فى دنياه ما ينفعه فى أخراه .

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - تعالى - : (وأشار فى الجواب إلى حالتين :

أرفعهما : أن يغلب عليه مشاهدة الحق بقلبه ، حتى كأنه يراه بعينيه وهو قوله : كأنك تراه أى ، وهو يراك ، والثانية : أن يستحضر أن الحق مطلع عليه ، يرى كل ما يعمل وهو قوله : «فإنه يراك» وهاتان الحالتان يثمرهما معرفة الله وخشيته) أهـ .

ومما لاشك فيه أن من كان عارفا بربه ، وكان يخشاه حق خشيته ، فإنه يعبد ربه كما لو كان يرى ربه بعينيه ، ويعبده مستحضرا أن ربه مطلع عليه .

وقال الإمام النووى - رحمه الله - : معناه : أنك إنما تراعى الآداب المذكورة إذا كنت تراه ويراك ، لكونه يراك لا لكونك تراه ، فهو دائما يراك ، فأحسن عبادته ، وإن لم تره .... ثم قال : وقد ندب أهل التحقيق إلى مجالسة الصالحين ؛ ليكون ذلك مانعا من التلبس بشىء من النقائص احتراما لهم ، واستحياء منهم ، فكيف بمن لا يزال الله مطلعا عليه فى سره وعلانيته أهـ .


والإسلام هو دين الإحسان ، حث عليه ، ودعا إليه ، ووضح رب العزة - سبحانه وتعالى - أنه مع المحسنين الذين يتقون ربهم ويراقبونه فى السر والعلانية ، فقال جل شأنه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ (١) .

فهو - سبحانه وتعالى - مع الذين اتقوا ربهم فأدوا ما أمرهم الله - تعالى - به ، وانتهوا عما نهاهم عنه ، إنه معهم بالعون والتوفيق ومعهم بتسديد خطاهم ، ومعهم بالرعاية ، ومعهم بالنصر والتأييد . وهو - سبحانه وتعالى - مع هؤلاء الذين اتقوا ربهم والذين هم محسنون فى تقواهم ، ومحسنون فى عباداتهم ومعاملاتهم وأعمالهم وسلوكهم وفى كل شئونهم .

وكما وضح - سبحانه وتعالى - أنه مع المحسنين ، فقد وضح - أيضا - أنه يحب المحسنين : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وإذا أحب الله عبدا وفقه لطاعته ، وأحبته الملائكة وأحبه الناس ، ووضع له القبول فى الأرض .

وإذا كان للإحسان هذه المنزلة فى الدنيا وفى الآخرة ، والتى تتلخص فى الدنيا «بأنه يوضع له القبول فى الأرض» ، وفى الآخرة حيث حظى بمعية رب العالمين . . إذا كان للإحسان وللمحسنين هذه المكانة ، فإن على كل مسلم أن يتحرى الإحسان فى كل أقواله وأفعاله ، وعباداته ومعاملاته وسائر شئونه . . وعليه كذلك أن يقف على معنى الإحسان وعلى المراد منه . .

---

(١) سورة النحل : (١٢٨) .



الإسلام والأمن الداخلى :

دعا الإسلام إلى استتباب[1] الأمن الداخلى فى كل صورة من صوره وفى كل مجال من مجالاته . فإذا نظرنا إلى نظرة الإسلام إلى أمن الإنسان الذاتى نجده يأمر الإنسان أن يكون معتدلا سائرا فى طريق الأمان ويحذره أن يلقى بنفسه فى التهلكة ﴿ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾[2] ويوضح رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - بأن أمن الإنسان على نفسه نعمة كبيرة إذا تحققت معها عافية البدن وقوت اليوم فقد اكتملت أسباب السعادة وكأنما حيزت الدنيا للإنسان فيقول :

«مَن أَصْبَحَ مِنْكُم آمنًا فى سربهِ[3]، مُعَافى فى جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فكأنما حِيزَتْ لَهُ الدنيا» رواه الترمذى .

وإذا نظرنا إلى دعوة الإسلام فيما يتصل بجانب الأمن الداخلى - بالنسبة للأهل والأسرة - نجد وصاياه فى هذا لا حدود لها وحسْبنا قول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾[4] .

---

(١) استتباب : استقرار واستقامة .
(٢) البقرة : (١٩٥) .
(٣) سربه : نفسه .
(٤) التحريم : (٦) .



وإذا نظرنا إلى الوصايا بأمن الجيران نجدها تبلغ الغاية فى التأكيد لدرجة قصوى حتى أن رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - يقول :

«مازَالَ جبريلُ يُوصينى بالجار حتى ظَنَنْتُ أنّه سَيُورّثُه»، وقال  **: «والله لا يؤمن - ثلاثا - قيلَ: مَن يارسول الله؟ قال: الذى لا يأمنُ جارُه بَوَائِقَه»**[1] . رواه أبو شريح الخزاعى وأخرجه البخارى .

خطر الشائعات على الأمن الداخلى:

حذر الإسلام من إطلاق الإشاعات ، ومن إذاعة أنباء الأمن أو أنباء الخوف أو بعبارة أخرى الحرب أو السلام ، حذر الإسلام من إذاعة تلك الأنباء ومن نشرها بين الناس دون الرجوع إلى ولى الأمر ، وذلك لأن أخبار الأمن أو السلام إذا أذيعت قد تدعو إلى التراخى عن الاستعداد والتأهب والأخذ بأسباب القوة ، ولأن إشاعة أخبار الخوف أو الحرب قد تفت[2] فى عضد[3] البعض من الناس ومن أجل هذا نعى الإسلام على من يفعلون ذلك ويطلقون الشائعات : قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ [4] مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ

---

(١) بوائقه : شره .
(٢) فت : أضعف .
(٣) العضد : الساعد وهو من المرفق إلى الكتف .
(٤) أمر : خبر .

إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ[1] مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٣) ﴾ [2] .

وفى عدم ترويج الإشاعات حفظ للأمن الداخلى وصيانة للمجتمع من الداخل حتى لا يتسرب إليه الضعف أو الخوف والرعب .

وإذا كان عدم ترويج الشائعات من أهم وسائل حفظ الأمن الداخلى ، فإن هناك عاملا آخر له أثره وفاعليته فى هذا المجال ، وهو عامل إيجابى بأن يقوم كل إنسان بعمله فلا يهمل أحد فى واجب يكلف به ولا يفرط فى رسالة يقوم بها بل عليه أن يؤدى واجبه ، وأن يقوم به على أحسن وجه بحيث يكون متقنًا له ، ففى قيام كل إنسان بعمله وأداء الأفراد والجماعات لمهامهم استقرار وتجاوب مع المجتمع فلا يكون هناك مجال للاختلاف أو ألوان الإثارات المختلفة ، ولقد حث الإسلام على العمل ودعا إلى إتقانه ، وقال – صلوات الله وسلامه عليه – : «**إنَّ اللهَ يحبُّ إذَا عَمِلَ أحدُكُم عَمَلاً أنْ يُتقِنِهُ**».

وقال : «مَا أَكَلَ أَحدٌ طَعَامًا قط خيرًا منْ أَنْ يأكلَ من عمل يده وإنَّ نبيَّ الله داود – عليه السلامُ – كانَ يأكلُ مِنْ عَمِلِ يَدِه» . رواه المقدام رضى الله عنه وأخرجه البخارى .

الإسلام والأمن الخارجى:

أما فيما يتصل بدعوة الإسلام إلى الأمن الخارجى فإن الناظر

---

(١) يستنبطونه : يستخرجونه .

(٢) النساء : (٨٣) .

إلى تاريخ الدعوة الإسلامية من أول وهلة[1] يرى أنها قامت وانتشرت بالحكمة والموعظة الحسنة .

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[2] .

ولم ينتشر الإسلام بالحرب ولا بالسيف ولا بأى أسلوب من أساليب القوة والقهر بل إن مشروعية الجهاد يتخلص حكمها فى الدفاع عن الدين وتأمين الطرق أمام الدعوة الإسلامية وفى الدفاع عن النفس والوطن ، فهو جهاد فى سبيل الله ، لا صلة له بأساليب القهر والسطو والاستعمار ، وإن المتتبع لآيات الجهاد فى القرآن الكريم يجد أنها قد خصته بإطار سليم نقيّ هو أنه فى سبيل الله قال الله - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾[3] .

والإسلام يدعو إلى الأمن والسلام فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) ﴾[4] .

---

(١) وهلة : شيء .
(٢) سورة النحل : (١٢٥) .
(٣) التوبة : (١١١) . (٤) سورة الأنفال : (٦١) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾[1] .

ويؤكد رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - على الأمن والسلام وعلى أن من حمل على المسلمين السلاح فليس منهم فقال - صلوات الله وسلامه عليه - : «**من حمل علينا السلاح فليس منا**» رواه أحمد والبخارى ومسلم النسائى .

ويوضح أهم سمات الإنسان المؤمن الصادق فى إيمانه وهى سمات الأمان فيقول صلوات الله وسلامه عليه : «**إنَّ المؤْمنَ مَنْ أَمِنَهُ الناسُ على دمائِهم وأموالِهم**» رواه البخارى .

قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : **إن أناسًا كانوا يؤخذُون بالوحى فى عهد رسولِ الله ﷺ وإن الوحىَ قد انقطع وإنما نأخُذُكُم الآنَ بما ظَهَرَ لَنَا من أعمالكُم، فمن أظهرَ لَنا خَيْرًا أمناه وقَرَّبْنَاه وليسَ إلينا من سريرته شىء والله يحاسِبُه فى سريرتِه، ومن أظهر لنا سوءًا لَم نأْمَنه ولَم نُصدّقْه، وإن قال إن سريرته حسنة.** رواه البخارى .

وهكذا نرى أن الإسلام يحرص على إقرار الأمن الداخلى وإقرار الأمن الخارجى حتى يعيش الناس فى استقرار وطمأنينة لا يتفزعون ولا يخافون .

وفى ظل الأمن والطمأنينة يؤدى كل فرد واجبه على أحسن ما يكون وتؤدى كل جماعة واجبها كأحسن ما يكون الأداء .

وفى الجو الآمن تنطلق الكلمة المعبرة ، والفكر المبدع والعمل المتقن المدروس .

وفى جو الأمن يحيا الناس مطمئنين فرحين مستشرين يؤدون واجباتهم فى هدوء واستقرار ، وفى سعادة وهناء وسلام . . . .

(١) سورة البقرة : (١٩٠) .

الإرهاب وحكم الإسلام فيه:

الإسـلام هو دين الأمن والطمـأنينة ، والاسـتـقـرار والسكينة ، لايقر الإرهاب أو العدوان ، ولا الظلم ولا الطغيان . .

فلقد حرم الإسلام **العدوان على النفس** بغير حق ، فقال الله - تعالى- : ﴿ ولَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾(١) وهذا الحق وضحه رسول الله ﷺ حين قال : «**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزانى، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»(٢).

وقد وضح الله - تعالى - عقوبة من يعتدى على النفس فقال : ﴿ ومَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ ولَعَنَهُ وأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾(٣) وواضح أن الخلود فى النار الوارد فى الآية الكريمة يكشف عن خطورة جريمة القتل وخروج من يستحلها باسم الإسلام ولذا قالت الآية الكريمة : ﴿ . . . خالدًا فيها ﴾ . . فلا خلود فى النار إلا لمن خرج عن الإسلام ، وشرد عنه .

وفى هذا المعنى يقول الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - : «**أَبَى الله أن يجعلَ لقاتل المؤمن توبة**»(٤) .

---

(١) سورة الإسراء : (٣٣)
(٢) رواه البخارى ومسلم
(٣) سورة النساء : (٩٣) .
(٤) رواه الطبرانى .

ويقول الله – تعالى– : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾[1] فقد صور القرآن قاتل النفس كأنه قتل الناس جميعًا لأن فى هذه الجريمة إهدارًا لحق الإنسان فى الحياة واعتداء على حق الخالق المحيى المميت . . ولذلك فإن الذين يشتركون فى قتل نفس واحدة يتحملون جميعا إثمها ويقتلون بها مهما كان عددهم ، ولا أبلغ مما رواه أبو سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ أنه قال : **«لو أن أهل السماء والأرض اشتركوا فى دم مؤمن لكبهم الله - عز وجل - فى النار»**[2] .

إن أولى سمات المسلم والمؤمن : السلام والأمان ، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال :

«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم»[3] . وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : **«لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزع فى يده فيقع فى حفرة من النار»**[4] .

لقد حرم الإسلام إشهار الإنسان سيفه فى وجه أخيه وإن لم يضرب به، وأن الملائكة تلعن من يشير إلى أخيه بحديدة يخيفه بها وإن لم يضربه، وحتى لو كان أخاه لأبيه وأمه.

(١) سورة المائدة : (٣٢) .
(٢) رواه الترمذى .
(٣) رواه الطبرانى .
(٤) رواه البخارى .

يقول رسول الله ﷺ : «**من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى ينتهي، وإن كان أخاه لأبيه وأمه**»[1] . وعن أبي عمر - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال : «**من حمل علينا السلاح فليس منا**»[2] .

بل إن الإسلام - حفاظا على الأمن النفسي في الإنسان - حرم ترويع المسلم وتخويفه وإن لم يحدث ضرب أو إيذاء فقال رسول الله ﷺ : «**لا يحل لمسلم أن يروع مسلما**»[3] .

بل وصل حرص الإسلام على الأمان إلى درجة أن مجرد النظرة حين لايكون فيها أمان يعاقب الله صاحبها عليها قال - صلوات الله وسلامه عليه - : «**من نظر إلى مسلم نظرة يخيفه فيها بغير حق أخافه الله يوم القيامة**»[4] .

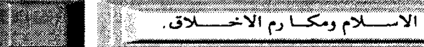
هكذا يصون الإسلام حرمة النفس ، ويجعل بذل الأمان لها علامة على الإيمان «**.. والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم**» وقال ﷺ : «**لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**»[5] .

ولم يقتصر الإسلام في تحريم الإرهاب والعدوان على أنفس المسلمين فحسب ، بل دعا إلى صيانة أنفس غير المسلمين ، بل

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه البخاري .
(٣) رواه أبو داود .
(٤) رواه الطبراني .
(٥) رواه البخاري .





دعا إلى العدل معهم والبرِّ بهم ، فقال الله - تعالى - : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) ﴾ [١] .

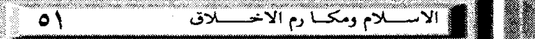
ويؤكد الإسلام حق غير المسلمين من المعاهدين فى الأمن والعدل وأخذ حقه ، وعدم العدوان على نفسه أو ماله .

فيقول رسول الله ﷺ : **«ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة»**[٢] وقال - عليه الصلاة والسلام- : **«من قتل رجلاً من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة»**[٣] . .

وقد أكد الإسلام على حقوق غير المسلمين حين يستجيرون بالمسلمين ، فقال عز شأنه : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ (٦) ﴾[٤] .

إن ظواهر العنف والإرهاب تسىء أول ما تسىء إلى الإسلام وتفتح الباب للقادحين ، أهذا هو الإسلام ؟ أهؤلاء هم أتباعه ودعاته ؟ فى الوقت الذى يبرأ فيه الإسلام من العنف ويبرأ من الإرهاب ومن ضرب الإنسان مسلمًا كان أو غير مسلم ، طائعًا كان

(١) سورة الممتحنة : (٨) .
(٢) رواه أبو داود .
(٣) رواه النسائى .
(٤) سورة التوبة : (٦) .




أو فاجراً فكل إنسان حسابه مع ربه ، وعقوبات الدنيا إنما هى بأيدى ولاة الأمر حتى لا تكون الحياة فوضى ، ولذا قال النبى ﷺ «.. **ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها لا يتحاشى من مؤمنها ولا يفي بعهد ذى عهدها فليس مني ولست منه**»[1] .

وتقديراً من الإسلام للإنسان ، وصيانة لحقه فى الحياة حرم الإسلام الظلم والعدوان عليه إن كان فاجراً بل جعل دعوته ليس بينها وبين الله حجاب ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : «**دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه**»[2] .

ولقد بلغت صيانة الإسلام لحقوق أهل الكتاب أن قال - عليه الصلاة والسلام - : «**من آذى ذميا فقد آذانى**» لقد وسع الإسلام أهل الكتاب فى كل تعاليمه رحمة بهم ، وعدلاً معهم وجعل طعامهم حلاً لنا وطعامنا حلاً لهم ، وأباح للمسلم أن يتزوج من الكتابية يهودية كانت أو نصرانية ، فماذا بعد هذه السماحة التى بلغت منتهاها ، هل يليق بأتباع دين هذا تشريعه ومنهاجه أن يعتدوا على حرمات الناس وعلى دمائهم وأموالهم ؟ !!

مواجهة الإرهاب:

وليست مواجهة الإرهاب مسئولية الأمن وحده ، بل مسئولية كل أفراد المجتمع حكومة وشعبًا ، وهيئات وأحزابا وأسرة . . وواجب الأسرة مهم فى هذا الصدد لابد أن تتضافر كل القوى فى إخماد نار الإرهاب والعنف فالدين لا يقر العنف ولا الإرهاب ولا التطرف . .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه الطيالسى .

ولذا فإن رسالة العلماء والدعاة والمفكرين والكتاب عظيمة ، ومسئوليتهم أمام الله عن هذا الانحراف الصارخ بتعاليم الإسلام كبيرة . . فيجب أن يأخذ العلماء دورهم فى هذه المسئولية فالفكر لا يواجه إلا بالفكر .

إن واجب العلماء والكتاب أن يوضحوا للذين يتعاطفون مع الإرهابيين المنهج الحقيقى للدعوة الإسلامية ، والذى خاطب الله تعالى به رسول الله ﷺ : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[1] .

إن الرفق فى الدعوة هو أبرز سماتها فليس فى الدين إكراه ولاعنف : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [2] لقد عنف أحد الدعاة الخليفة المأمون فقال له المأمون : يارجل ارفق فقد بعث الله من هو خير منك موسى وهارون إلى من هو شر منى – فرعون – وأمرهما بالرفق فقال تعالى : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) ﴾[3] .

وإذا كان الإرهاب كارثة على الأمة ، فإن أخطر من الإرهاب الذين يقفون من خلفه والذين يمولونه والذين يبررونه ، أما آن الأوان أن يصيخوا السمع إلى موجات الغضب الهادرة من أبناء الوطن

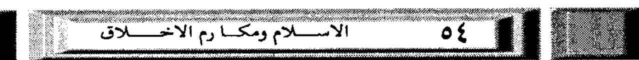
(١) سورة النحل : (١٢٥) .
(٢) سورة البقرة : (٢٥٦) .
(٣) سورة طه : (٤٤) .

وكأنى بكل الأحرار الشرفاء المؤمنين يقولون أيكون أبناء الكنانة فتنة؟ أيكون من شرب من نيل مصر واستظل بسمائها - حربًا عليها يزلزل استقرارها وأمنها وهى بلد الأمان التى لم يذكر الله بعد البلد الحرام أم القرى مكة المكرمة بالأمان إلا مصر ، حين قال عن البيت الحرام : ﴿ ومَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ وحين قال عن مصر : ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ أيريدون أن يغيروا دعوة الله ، لقد جعل الله الكعبة قبلة الصلاة للمسلمين ، وجعل الأزهر الشريف فى مصر قبلة العلوم الإسلامية والمعرفة الدينية وهو الكنانى المبارك الذى عناه أمير الشعراء أحمد شوقى - رحمه الله - حين قال :

إن الذى جعل العتيق مثابة   جعل الكنانى المبارك كوثرا

وإنى لأقول للشباب لا تتبعوا الإرهابيين ولا الجماعات المتعددة وهذه هى نصيحة رسول الله - ﷺ : «**الزم جماعة المسلمين وإمامهم**» رواه البخارى .

وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : **عليك بالجماعة فإن الله لم يكن ليجمع أمة محمد على ضلالة** .



مكانة الوطن فى الإسلام :

إن محبة الأوطان من دلائل الإيمان ؛ فما شرع الجهاد فى سبيل الله إلا دفاعا عن العقيدة والأوطان ، وردّاً للظلم والطغيان ، وتأمينا لدعوة الإيمان ، ونشرًا للسلام والأمان .

ومما لاشك فيه أن فى الجهاد بذلا للمهج والأرواح ، فى سبيل الدفاع عن الدين والأوطان :

وللأوطان فى دم كل حر يد سلفت ودين مستحق
وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

الرسول ﷺ وحب الوطن :

وقدوتنا فى حب الأوطان ، هو سيدنا رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - فعندما خرج مُهاجرا من مكة إلى المدينة ، نظر إلى البيت الحرام نظرات حانية ، ثم قال مخاطبا مكة المكرمة ، البلد الحرام ومسقط رأسه ، ومنزل الوحى وقبلة المسلمين :

«والله إنك لأحب أرض الله إلىّ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجونى منك، ما خرجت»[1] .

ثم توجه الرسول ﷺ إلى الله - سبحانه وتعالى - بهذا الدعاء :

«الحمد لله الذى خلقنى ولم أَكُ شيئا اللّهم أَعِنِّى على هول الدنيا، وبوائق الدهر ومصائب الليالى والأيام. اللّهم اصحبنى فى سفرى،

(١) رواه أحمد والترمذى .

واخلفنى فى أَهْلى، وبارك لى فيما رزقتنى، ولكَ فَذَلِّلْنِى وعلى صالح خلقى فقوّنى، وإليك ربى فحبّبْنِى، وإلى الناس فلا تكلنى.

أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربى، أعوذ بوجهك الكريم الذى أشرقت له السموات والأرض، وكشفت به الظلمات، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين، أن تُحلّ علىّ غضبك وتنزل بى سخطك، أعوذ بك من زوال نعمتك، وفجأة نقمتك، وتحول عافيتك وجميع سخطك، لك العتْبى عندى خير ما استطعت، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

وفى قوله ﷺ لمكة : **«إنك لأحب أرض الله إلى»** ما يدل على حبه لها ، وعدم رغبته عنها إلا للضرورة ، ولذلك لما خرج - عليه الصلاة والسلام - من مكة ، فبلغ الجُحْفةَ اشتاق إلى مكة ، فأنزل الله : ﴿ إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾[2] قال إلى مكة» انتهى[3] .

ومما يدل على أن حب الوطن من الإيمان ، قول الله - تعالى - : ﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا من دِيَارِنَا ﴾[4] .

والناس يحبون أوطانهم ففيها حياتهم ونشأتهم ، وبها تَعَلّقت

---

(١) البداية والنهاية ، ورواه أبو النعيم .
(٢) سورة القصص : (٨٥) .
(٣) رواه ابن أبى حاتم .
(٤) سورة البقرة : (٢٤٦) .

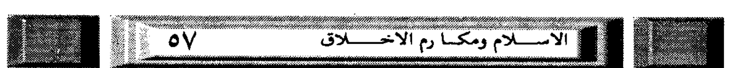
عواطفهم ، وفيها تواصل الأرحام ، والإحسان إلى أهل الوطن من فقراء ومحتاجين ، وفى كل جزء فى الوطن عاطفة للإنسان ترتبط به ، ولا تفرط فيه وإذا كانت مكة وطنًا أولَ لرسول الله ﷺ ، فإن المدينة المنورة كانت الوطن الثانى الذى هاجر إليه ، ودعا للمدينة ولأهلها ، ودعا بالبركة فيها حيث قال : **«واجعل بالمدينة ضعفَىْ ما جعلت بمكة من البركة»** .

وتتجلى محبته – صلوات الله وسلامه عليه – للمدينة ، ومحبة أهل المدينة له فى استقبالهم وحفاوتهم به وبالمهاجرين من أول لحظة قدم فيها المدينة ، كما تتجلى محبته للمدينة ومحبة أهلها له ، بعد أن فتح الله – تعالى – عليه مكة ، وفرح بالفتح فرحًا عظيما ، وكان حفيا بالكعبة المشرفة والمسجد الحرام . . وعندئذ خاف الأنصار أن يقيم رسول الله ﷺ فى مكة ، ولا يرجع إلى أهل المدينة فيحرمون منه ، فقال بعضهم لبعض : أما الرجل فأدركته رغبة فى قريته ، ورأفته بعشيرته ، أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها ؟

فأوحى الله إليه بما جرى ، فذهب رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – إليهم ، فأخبرهم بما قالوا .

فأَقروا ، فطمأَنهم قائلا : **«كلا إنى عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم، والممات مماتكم»**.

فأقبلوا إليه يبكون ويقولون : **«والله ما قلنا الذى قلنا إلا الضن بالله ورسوله»**.



فقال رسول الله ﷺ : «**إن الله ورسوله يُصَدِّقَانِكم ويَعْذِرَانِكم**».

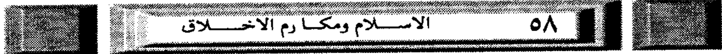
هذا هو النموذج الأمثل فى حب الوطن والتعلق به ، والوفاء له والانتماء الصادق إلى العقيدة الحقة ، التى تدعو إلى حبه وصدق الانتماء إليه ، وهذا يجعل الناس ينافحون عنه وينتصرون له ، ويضحون بالنفس والنفيس فى سبيله ، وتكون خيانته أو التفريط فى حقه فى الأمن والاستقرار من الخيانة العظمى ، التى تُورد صاحبها موارد الهلاك .

إن حب الوطن ، يدعو كل مؤمن صادق الإيمان ، أن يكون وفيا لتراب الوطن الذى نشأ عليه ، وأن يصونه من كلٍّ غائلة ، ومن كل ترويع أو اضطراب ، فلا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له .

إن سمات المؤمن أن يأمنه الناس ، على دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، بل يكون اسمه نداء النجدة للمكروبين والمفزَّعين ، ويكون فى جواره الأمن والطمأنينة .

وإن الإسلام حين يدعو إلى حب الأوطان ، ونشر الطمأنينة فيها والأمان ، إنما يقرر المبدأ الإسلامى الذى يجب أن يسود فى الأرض ، وهو مبدأ الحرية والسلام ، والأمن والاستقرار ، بل إن الإسلام قرّر مبدأ الجوار ، ومبدأ الأمن لمن يجير إنسانا ولو كان كافَرا ، فلا تمتد يدٌ بسوءٍ إليه .

فقد كانت السيدة أم هانئ بنت أبى طالب زوج هبيرة بن أبى وهب المخزومى قد أجارت بعض أقارب زوجها - بعد الفتح - وهما :





الحارث بن هشام وزهير بن أبى أمية المخزومى ، فدخل عليها أخوها على بن أبى طالب - رضى الله عنه - ، يريد أن يقتل الرجلين فمنعته أم هانئ ، ثم جاءت إلى رسول الله ﷺ - وهو فى مكة - فلما رآها رسول الله ﷺ قال : «**مرحبا بك وأهلا يا أم هانئ ما جاء بك ؟**» **فقالت : يانبى الله كنت أمَّنْتُ رجلين من أحمائى فأراد علىٌّ قتلهما ، فقال رسول الله** ﷺ : «**قد أجَرْنَا مَنْ أجرتِ يا أمَّ هانئ**»[1] . فماذا كانت نتيجة هذا الجوار والأمان لهذين الرجلين ؟

لقد أسلم الحارث وزهير وكانا عونا للإسلام وأهله ، وهكذا كانت ثمرة تعاليم الإسلام فى دعوته إلى الأمن والاطمئنان ، وحُبّ الأوطان ، ولله درّ القائل :

بلادى وإن جارت علىّ عزيزة وأهلى وإن ضَنُّوا علىّ كرامُ

ومعنى هذا أن الإنسان يعز عليه أن تشقى بلده ، وحتى لو فرض أنها جارت عليه ، أو ناله منها عسف أو تعب أو نصب ، فإنها مع هذه عزيزة على الإنسان ، لا يرضى لها الضياع ولا الهوان ، ومعلوم أن الوطن بمؤسساته وتراثه ، وبحضارته وخيراته لا تكون هذه الأشياء هى الجائرة ، ولكن مراد الشاعر أن الذين فيها قد يجورون ، فلا يصح أن يكون هذا مسوّغا للإنسان أن يكره الوطن برمّته ، ولا أن يكون حربا عليه ، بل تظل بلاده عزيزة عليه .

كما أن أهل الإنسان وعشيرته ، قد يبخلون عليه ، فلا يكون بخلهم أو بخل أحدهم مسوغًا له أن يبغضهم ، بل عليه أن ينظر

(١) رواه البخارى ومسلم .

إلى زوايا أخرى ناله من خلالها وبسببهم خيرٌ كثير ، فقد تَربى بخيرهم ونشأ فى جوارهم ، وإن ضَنُّوا عليه فى جانب ، فقد كانوا كراما فى جوانب أخرى .

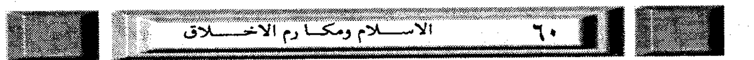
ومن هنا تغنَّى الشعراء بحب الأوطان ، وبالتفانى فى سبيل رفعتها وسؤددها :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه   نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

إن الإنسان المؤمن ، يحب وطنه ، ويظل وفيّاً له ، منافحًا عنه وعونا لأهله فى السراء والضراء ، يعز عليه أن يشقى الوطن أو أحدٌ من أهله مهما كانت الأحوال .

إن الإنسان المؤمن ، محب لوطنه ، وفىٌّ له ، متعاونٌ مع أهله ، مدافع عنه ، يعز عليه عنت الوطن ، أو شقاوته أو ترويعه أو إرهاب أحد بنيه ، بل يحب له الخير والسلام ، والأمن والاستقرار ، فالمؤمن مَنْ أمِنَهُ الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم روى الدينورى ، عن الأصمعى قال : قالت الهند : **(ثلاث خصال فى ثلاثة أصناف من الحيوان الإبل تَحِنُّ إلى أوطانها، وإن كان عهدها بها بعيداً، والطير إلى وَكْرِهِ، وإن كان موضعه مجدبًا، والإنسان إلى وطنه وإن كان غيره أكثر له نفعا).**

وعن الأصمعى قال : سمعت أعرابيا يقول : **(إذا أردت أن تعرف الرجل فانظر كيف تحننه إلى أوطانه، وتشوّقه إلى إخوانه، وبكاؤه على ما مضى من زمانه).**



حسن الجوار فى الإسلام:

لقد أكد الإسلام حق الجوار ، سواء كان جارا قريبا أم جارا أجنبيا ، أم كان جارا مرافقا فى السفر ، أو زميلا فى تعلم العلم ، أو كان جالسا إلى جوارك فى مجلس ، فقد قال الله تعالى :

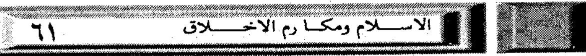
﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (٣٦) ﴾ [1] .

فنرى إن الآية الكريمة وصَّت بالجار ذى القربى : وهو الجار القريب له حق الجوار وحق القرابة ، كما وصَّت بالجار الجنب : وهو الجار الأجنبى الذى لا قرابة بينك وبينه ، كما وصَّت الآية بالصاحب بالجنب ، وهو كما قال ابن عباس رضى الله عنهما :

(هو الرفيق فى السفر) وقال الزمخشرى : **(والذى صحبك إما رفيقا فى سفر، أو جارا ملاصقا، أو شريكا فى تعلم علم، أو قاعدا إلى جنبك فى مجلس أو غير ذلك...)** وقيل : هو المرأة .

وكانت الوصية بالجار مؤكدة لدرجة أن الذى نزل بها جبريل – عليه السلام – من قبل الحق تبارك وتعالى ، ولم ينزل بها مرة ولا مرتين ، بل نزل بها عدة مرات ، ووصى بالجار كثيرا ، حتى أن

(١) سورة النساء : (٣٦) .


رسول الله ﷺ ظن أن سيشارك الجار جاره في الميراث ، كما يشارك القريب الوارث قريبه ، فقد قال رسول الله ﷺ : **«مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»**[1] .

وجعل الإسلام إكرام الجار لجاره دلالة على الإيمان بالله واليوم الآخر ، فقال - صلوات الله وسلامه عليه - : **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره»**[2] .

كما جعل الإسلام من دلائل الإيمان وكماله أن يأمن الجار بوائق جاره ، أي غوائله وشروره ، فقال - صلوات الله وسلامه عليه - «لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه»[3] .

وإيذاء الجار ، وعدم القيام بحقه يحبط عمل صاحبه ؛ لأن الإسلام دين عبادة ومعاملة ؛ ولذلك **لما قيل لرسول الله** ﷺ **: إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها فقال** ﷺ **: «هي في النار»**[4].

حقوق الجار :

من حقوق الجار : **احتمال أذى الجار، ولا يكفي منع الأذى عنه، ولا يكفي احتمال الأذى، بل لابد من الرفق وإسداء الخير والمعروف للجار.**

ومن حقوق الجار : **أن يبدأ المسلم جاره بالسلام، وأن يكثر من**

(١) رواه البخاري ومسلم .
(٢) رواه البخاري ومسلم .
(٣) رواه البخاري .
(٤) رواه أحمد والحاكم .

السؤال عن حاله والتتبع لأخباره، وعليه أن يعود جاره إذا مرض، وأن يعزيه إذا كان مصابا، ويهنئه إذا فرح، ويصفح عن زلاته، ولايتطلع إلى عوراته، ولا يضيق طريقه إلى الدار، ولا يتطلع إلى ما يحمله إلى داره، ويرشد إلي ما يجهله من أمور دينه ودنياه، وفى الحديث: «أتدرون ما حق الجار؟ إن استعان بك أعنته، وإن استنصرك نصرته، وإن استقرضك أقرضته، وإن افتقر عدت عليه، وإن مرض عدته، وإن مات تبعت جنازته، وإن أصابه خير هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيته، ولا تستعل عليه بالبناء فتحجب عليه الريح إلا بإذنه، وإذا اشتريت فاكهة فأهد له، فإن لم تفعل فأدخلها سرا، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده، ولاتؤذه بقتار ريح قدرك إلاّ أن تغرف له منها». ثم قال «أتدرون ما حق الجار؟ والذى نفسى بيده لا يبلغ حق الجار إلا من رحمه الله»[1]؟

وللجار حق وإن لم يكن مسلما ، قال مجاهد : كنت عند عبد الله بن عمر وغلام له يسلخ شاة فقال: ياغلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودى، حتى قال ذلك مرارا، فقال له: كم تقول هذا؟ فقال: إن رسول الله ﷺ لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه.

ويوصى الإسلام الجارات المسلمات بتواصل الود بينهن فيقول ﷺ : «يانساء المسلمات لا تحقرن جارة جارتها، ولو فرسن شاة»[2].

(١) أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق وابن عدى وهو ضعيف ويمكن العمل به فى فضائل الأعمال .

(٢) رواه البخارى .

وعليه أن يطيع الله فى جاره ، **فقد روى أن رجلا جاء إلى ابن مسعود رضى الله عنه فقال له : إن لى جارا يؤذينى ويشتمنى ويضيق على، فقال: اذهب فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه.**

وأما إذا زاد الجار فى شره وإيذائه لجاره ، ولم يُجْدِ معه الصبر ولا الملاينة ، فعليه بتحريك الرأى العام معه ،**فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو جاره فقال له النبى ﷺ : «اصبر» ثم قال له فى الثالثة أو الرابعة: «اطرح متاعك فى الطريق» قال: فجعل الناس يمرون به ويقولون مالك؟ فيقول: آذاه جاره. فجعلوا يقولون: لعنه الله ؛فجاءه جاره فقال له: رُدَّ متاعك فوالله لا أعود**[1].

---

(١) رواه أبو داود والحاكم .



حقيقة الإخلاص:

(**التبرى عن كل مادون الله - تعالى -**)[1] ، ومعنى هذا أن يتمحض كل عمل يصدر عن المسلم لوجه الله – سبحانه وتعالى – بعيداً عن كل ما دونه حتى سكناته وحركاته ، وظاهره وباطنه ، كل ذلك يكون فى مرضاة الله – تعالى – كما قال سهل – رحمه الله تعالى – : (الإخلاص : أن يكون سكون العبد وحركاته لله – تعالى– خاصة) وهذه العبارة جامعة وافية بالمقصود ، قال إبراهيم ابن أدهم : (الإخلاص : **صدق النية مع الله - تعالى -**)[2] .

والإخلاص في ضوء القرآن الكريم تتحدد ملامحه بأن تكون العبادة خالصة لله وحده ، وأن يكون كل ما يصدر عن الإنسان مقصودا به وجه الله – تعالى – ، يقول الله – سبحانه– مخاطبا رسوله ﷺ : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[3] ومعلوم أن خطاب الرسول ﷺ هو خطاب لأمته كذلك ، ولكن تأكيدا لأمر الإخلاص ، فقد

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص١٥٥ .
(٢) إحياء علوم الدين للغزالى ج ١٤ص ٣٧١٧ط . الشعب .
(٣) سورة الزمر : (٢ – ٣) .

جاء الأمر عاماً فى قول الله- تعالى - :﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) ﴾[1] .

وقد أشار الله - سبحانه - إلى العبادة على أساس من الإخلاص ، وإلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، بأن ذلك هو دين الملة القيمة ، وقد جاءت الإشارة بلفظ (ذلك) المفيدة للبعد ، تنويها ببعد منزلته ورفعتها قال - تعالى - : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) ﴾[2]

وأبانت الآية مقام الإخلاص بالنسبة للحق وللخلق ، كما وضحت أن الإخلاص والعمل قرينان لا ينفصلان ، فتبين أنه لابد من الإخلاص فى قوله : (مخلصين) ولابد من العمل فى قوله : ﴿ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة﴾ .

أما عن الإخلاص فى ضوء السنة الشريفة ، فأول ما ننظر إليه هو ما روى عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[3].

(١) سورة غافر : (١٤) .
(٢) سورة البينة : (٥) .
(٣) رواه البخارى .

وفى هذا الحديث يرسى الرسول ﷺ قاعدتين من أهم القواعد الإسلامية :

إحداهما: هى الأساس الذى يقوم عليه كل عمل .

ثانيهما: جزاء كل عامل .

ولذا كان هذا الحديث من الأحاديث الهامة التى تقوم عليها أصول الإسلام .

قال الإمام أحمد بن حنبل: أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث: حديث عمر: «إنما الأعمال بالنيات»،

وحديث عائشة: «من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد».

وحديث النعمان ابن بشير: «الحلال بين والحرام بين».

وجاء التعبير النبوى الحكيم بلفظ : «إنما . .» ليوضح حصر قبول الأعمال ، والثواب عليها فى قيامها على أساس من النية .

والمراد بالأعمال فى الحديث : هى العبادات التى تفتقر إلى نية كالصلاة والصيام . . وغير ذلك من العادات التى تصبح بالنية عبادة كما جاء فى الحديث : «**إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت عليها، حتى اللقمة تضعها فى فم امرأتك**»، **والنية فى اللغة: هى القصد، وحقيقتها الشرعية: تعنى تمييز بعض العبادات عن بعض، كالظهر من العصر، أو تمييز العبادات عن العادات، كالغسل الذى يقصد به التطهر أو التنظيف**، وهكذا ، أما منزلة النية من الأعمال **فإن للعلماء فى ذلك ثلاثة آراء:**

١ - رأى السلف والصوفية : وهو أن العمل يتوقف قبوله على

الإخلاص لله فإذا خلا عن الإخلاص ، فإنه لا يقبل مهما كان صحيحا وخيريا .

٢ - يرى البعض أن النية شرط لصحة الأعمال ، ومعنى الحديث : إنما صحة الأعمال بالنيات .

٣ - يرى بعضهم أن النية شرط كمال ، أي إنما كمال الأعمال بالنيات .

تحمل النية في الحديث على معناها اللغوى ؛ لأنه الذى يشمل النية الحسنة أو السيئة ، ثم فصل الحديث الحكم بعد ذلك ، وفرع على القاعدتين السابقتين ، فبين أن المهاجر إذا كان فى سبيل الله وابتغاء مرضاته فهو المهاجر إلى الله ورسوله حقا ، ولذا ورد جواب الشرط بلفظ الشرط ؛ لأن ما نواه هو منتهى مطلوبه ومقصوده ، أما إذا كان المهاجر طالبا من طلاب الدنيا ، أو راغبا فى امرأة يتزوجها فهجرته عندئذ إلى ما هاجر إليه تحقيرا لرغبته ، وقد بين الله - تعالى - وجوب الإخلاص فى العمل بحيث لا تشوبه شائبة من شوائب الرياء ، قال - تعالى - : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾[2] .

(١) سورة الكهف : (١١٠) .
(٢) سورة النساء : (١١٤) .

وهذا وعد من الله - تعالى - بعظم أجر المخلصين ، وإذا كان الحديث قد نص على الهجرة فما هى إلا مثال من أمثلة العمل ، وعلى ضوئها تقاس سائر الأعمال من الجهاد ، وتعلم العلم ، والإنفاق ، وما إلى ذلك من وجوه العمل ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - سمعت النبى ﷺ يقول :

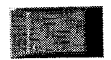
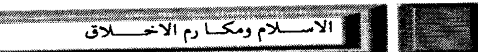
«إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه، فعرفها فقال: ماعملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت؛ لأن يقال جرىء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار.

ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، فقال: ماعملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار.

ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتى به فعرفه نعمه، فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: ماتركت فى سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها، قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال: هو جواد فقد قيل، ثم أمر فسحب على وجهه، ثم ألقى فى النار»[1].

وهكذا كل عمل يشرك فيه صاحبه أحدًا غير الله ؛ فهو متروك

(١) رواه مسلم .

ولاوزن له ، عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : يقول الله – تبارك وتعالى – : «أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه»[1] .

كما يرشد الحديث كذلك إلى وجوب الهجرة من بلاد الكفر والخوف ، إلى بلاد الإيمان والأمن ، والتحذير من الدنيا وزخرفها ، والتحذير من فتنة النساء ، فهى أضر ما يكون على الرجال ، والهجرة لغة : هى الترك ، وشرعا : ترك ما نهى الله تعالى عنه ، والمراد بالهجرة فى الحديث : الانتقال من مكة إلى المدينة وذلك قبل أن ينسخ حكمها ، أما الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام فهى باقية محافظة على الدين وخوفا من الفتنة ، قال – تعالى – : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) ﴾[2] .

وفى معنى الهجرة العامة لكل ما نهى الله عنه ، روى عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال : **«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»**[3].

---

(١) أخرجه البخارى .
(٢) سورة النساء : (٩٧) .
(٣) أخرجه البخارى .

وجوه الإخلاص:

ووجوه الإخلاص عديدة ؛ لأنه مطلوب فى القول والعمل ، وفى الحركة والسكون ، وفى الظاهر والباطن ، ولكن يمكننا أن نحصر أصول الإخلاص فى أربعة وجوه :

١ - فى العقيدة

٢ - فى العبادات

٣ - فى المعاملات

٤ - فى الجهاد

أولا: الإخلاص فى العقيدة:

أما عن الإخلاص فى العقيدة : فيتجلى واضحا فى الإيمان بالله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، والإخلاص فى العقيدة فطرى فى النفس الإنسانية ، وقلب المؤمن المخلص عامر بالعقيدة دائما وأبدا ، فى السراء وفى الضراء ، وفى البر وفى البحر ، أما غير المؤمن فلا ينزع إلى فطرته إلا عند الشدة ، وعندما تزول شدته يرجع أدراجه إلى التمرد ، قال - تعالى - :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا

هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) ﴾[١] .

أما عن إخلاص العقيدة فى ضوء السنة ، فما ورد فى ذلك : عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «**إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا: فيرضى لكم أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم، ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**»[٢].

والمراد بالرضا والكراهة فى الحديث : الثواب والعقاب ، أو إرادة ذلك ، أى أن الله - تعالى - يأمر بثلاث خصال ويثيب عليها ، وينهى عن ثلاث خصال ويعاقب مرتكبها .

أما **أول الخصال** التى يرضاها فهى طاعة الله وعبادته عبادة مخلصة قائمة على أساس من العقيدة الخالصة النقية ، فلا يقصد بها إلا وجه الله - سبحانه وتعالى - وقد نص الحديث على أساس الإخلاص فى العقيدة بقوله : «**ولا تشركوا به شيئا**» وذلك بأن ينتفى من طريق العبادة كل اعتقاد مزيف ، كالشرك بالله ، فمثل هذا كفر لا ينفع معه عمل ، وهذا هو الشرك الأكبر ، وقد يراد بالحديث الشرك الأصغر وهو الرياء : بأن يقصد بالعمل وجه الله ووجه غيره من الناس الذين يرونه .

(١) سورة يونس : (٢٢ - ٢٣) .
(٢) رواه مسلم وأحمد .

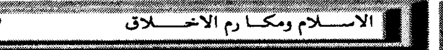
ثم بين الحديث **الخصلة الثانية** ، وهى : الاعتصام بالدين والتمسك به ، وعدم التفرق حتى لا يتسرب الضعف والهوان إلى الصفوف ، ففى الوحدة قوة ، وقد أكد أمر الوحدة بعد قوله : **«واعتصموا بحبل الله جميعا»** فقال : **«ولا تفرقوا»** وفى هذا إشارة إلى أن المؤمنين إذا قامت وحدتهم على أساس من الكتاب والسنة وهما : أصلا هذا الدين . ومصدرا العقيدة والشريعة له ، إذا قامت على هذا الأساس فإنها فى أمن وطمأنينة ، وفى نصر وقوة حصينة ، أما إذا أعرضوا عن أصول عقيدتهم وفرطوا ، فإن قوتهم ستتبدد ، وريحهم تذهب ، قال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) ﴾[١] .

والخصلة الثالثة : مناصحة ولاة الأمر لما فيه نفع الإسلام والعباد والبلاد .

أما **عن الخصال التى نهى عنها: فهى نقل كلام الناس ومحاولة التعرف على أمورهم الظاهرة والخفية** ، وذلك ناشئ عن سوء عقيدة صاحبه وضعفها ، أما من كان حسن العقيدة ، حسن الإسلام ، ففى شأنه يقول الرسول ﷺ : **«من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه»**،وقد جعل الله - تعالى - من سمات المؤمنين المفلحين : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) ﴾[٢] .

---

(١) سورة الأنفال : (٤٦) .
(٢) سورةالمؤمنون : (٣) .




والخصلة الثانية: مما يكرهه الله وينهى عنه : كثرة السؤال فيما لايعنى الإنسان ، وفيما يترتب عليه حرج المسئول بل وحرج السائل أحيانا أو السؤال عن العلم والتعرف عما لم يقع ، خاصة ما يترتب عليه تشكيك أو جدل ، وهذا أرجح ، أو المراد : السؤال عما فى أيدى الناس .

أما الخصلة الثالثة: فهى إضاعة المال فى غير مصارفه الشرعية ، بل يتبع فى المال الطريق المعتدل دون إسراف أو تقتير ، قال – تعالى – فى صفات عباد الرحمن : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾[1] وهكذا ينشد الإسلام من أتباعه أن يكونوا مجتمعا مخلصا ، تنتفى فيه العقيدة المزيفة ، وآثارها ، وتشرق فيه روح الإسلام ، ووحدته وآدابه على أساس الإخلاص .

ثانياً: الإخلاص فى العبادات:

قبل أن نبرز وجوه الإخلاص فى العبادات ، نورد هنا هذا الحديث الجامع لأركان الإسلام الخمسة ، والذى يتضح به بناء الإسلام أولا ، ثم نتناول بعد ذلك بالتحليل وجوه الإخلاص فى العبادات .

روى البخارى بسنده عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : «**بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان**».

(١) سورة الفرقان : (٦٧) .

وفى هذا الحـديث توضـيح لأركـان الإسـلام ، وفى بعض الأحاديث الأخرى فسر الرسول ﷺ الإسلام بالأعمال الظاهرة ، والإيمان بالاعتقاد والتصديق ، وهذا تفصيل لأمر واحد ، أو لجملة كلهـا شيء واحـد ، هو : الدين ، وإذا أطلق الإسـلام أو الإيمان يقصد به الدين من اعتقاد وعمل ، أما إذا ذكرا معا كان المراد بالإيمان التصديق والمراد بالإسلام العمل . وفى الركن الأول وهو الشهادتان ، بيان للعقيدة الإسلامية الصافية ، من توحيد الله سبحانه ، وثبوت رسالة الرسول ﷺ ، وفى هذا الركن إخلاص العقيدة الذى سبق أن بيناه .

وفى الركن الثانى: وهو الصلاة ، انتهاء عن الفحشاء والمنكر ، ووصول إلى درجة التقوى ، وذلك عندما تكون الصلاة خالصة لله : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾[1] أما إذا لم تتسم الصلاة بإخلاص صاحبها ، فيضرب بها وجهه ، لأنها غير صالحة ، ولأنها لم تنه صاحبها عن الفحشاء كما ورد : **«من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له»** ولسمو مكانة الصلاة فرضت ليلة الإسراء والمعراج فى أعظم مكان ، وقيل فى حكمة فرضيتها فى تلك الليلة أن الرسول ﷺ لما تطهر ظاهرا وباطنا عندما غسل قلبه الشريف وملئ بالإيمان والحكمة ، ومن شرط الدخول فى الصلاة كذلك : أن يسبقها الطهور - لما تمت له تلك الطهارة - ناسب ذلك أن تفرض الصلاة فى هذا الوقت ، وعلى تلك الحالة .

---

(١) سورة العنكبوت : (٤٥) .

وفى فضل الإخلاص فى الطاعات : روى الإمام مسلم بسنده عن حمران مولى عثمان قال : **توضأ عثمان بن عفان يوما وضوءا حسنا، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ فأحسن الوضوء، ثم قال: «من توضأ هكذا، ثم خرج إلى المسجد لا ينهزه[1] إلا الصلاة غفر له ماخلا من ذنبه»** وفى هذا حث للمسلمين على الإخلاص فى الطاعات ، حتى تكون متمحضة لله - سبحانه - .

وقد بين الله علامات الصلاة المقبولة ، ووضح أن أهمها الإخلاص وظهور ثمرات فى التعاطف ، روى الرسول ﷺ عن رب العزة - سبحانه - : **«إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى ولم يستطل بها على خلقى، ولم يبت مصرا على معصيتى، وقطع النهار فى ذكرى، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ورحم المصاب»** رواه البزار .

وفى **الركن الثالث:** وهو الزكاة : تطهير للنفس من شتى الأدران وسمو بها إلى أمثل المعانى والمبادئ من التآليف والتعاطف قال الله- تعالى - : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا[2] .

وقد وسّع الإسلام دائرة الصدقة كى يسمو بالمجتمع إلى أطهر العواطف ، وأسمى المبادئ . قال ﷺ : **«تبسمك فى وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل فى**

---

(١) أى لا يدفعه ويحركه إلا الصلاة ، وضبطها : بفتح الياء والهاء وإسكان النون بينهما .
(٢) سورة التوبة : (١٠٣) .

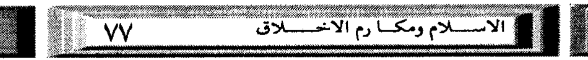
أرض الضلال لك صدقة، وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك فى دلو أخيك لك صدقة، وبصرك للرجل الردىء البصر لك صدقة»[1].

وبالزكاة يتم تطهير نفس الغنى من آفة الشح ، ونفس الفقير من آفة الحقد وتطهير المال بإخراج حق أصحابه منه وهم الفقراء ، وقد نفى الإسلام ظاهرة البذل من شائبة الامتنان على الفقير ، فعبر القرآن فى جانب الجزء الذى يدفع للفقير بأنه حق : إشارة إلى أهميته ووجوب الإسراع بأدائه ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) ﴾[2] وإذا خالط الزكاة رياء أو أذى حبط ثوابها ، وقد وضح الله تعالى أثر الإخلاص فى قبولها أو عدمه حين يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾[3] .

وفى الصيام : وصول إلى التقوى كما قال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

---

(١) رواه البخارى فى الأدب ، وابن حبان فى صحيحه والترمذى عن أبى ذر .
(٢) سورة المعارج : (٢٤ - ٢٥) .
(٣) سورة البقرة : (٢٦٤) .



آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) ﴾[1] ، أما إذا لم يصل الصيام بصاحبه إلى هذه الدرجة ، وكان الصيام مجرد امتناع عن الطعام والشراب فحسب ، فإنه حينئذ يكون قد افتقد عنصر الإخلاص ، فلا يكفى هذا الصوم ، وليس لصاحبه منه إلا الجوع كما قال الرسول ﷺ : **«رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر»**[2] .

وفى الحج : تعبير واضح عن الإخلاص ، تعلن عنه التلبية : **«لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك»** وهذا تعبير عن الاتجاه الخالص لله وحده ، وتعبير عن الإخلاص فى الطهر الظاهر وهو غسل الإحرام ، والطهر الباطن بالتوبة النصوح ، والحج واجب مرة فى العمر على المستطيع ، وفيه بالإضافة إلى ما سبق ، يعمل المسلمون على إصلاح أمر دينهم ودنياهم ، وفيه غرس لخلال التقوى وتطهير من كل آفات الشر قال - تعالى - : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ (١٩٧) ﴾[3] .

وهذه الأركان السابقة هى الأصول العامة فى الدين ، وأما

---

(١) سورة البقرة : (١٨٣) .
(٢) رواه النسائى وابن ماجة والحاكم .
(٣) سورة البقرة : (١٩٧)

غيرها فهو إما متمم لها أو محقق لهدفها ، وهو : إخلاص العبادات لله ، وهى فى مجموعها ، ورغم اختلاف مظاهرها تشكل صلة وثيقة بين الدين والخلق ، ونتيجة واحدة هى «مكارم الأخلاق» وتلك النتيجة تتجلى واضحة حين يزكى الإنسان بتلك العبادات نفسه ، فتكون له جنات عدن فى الآخرة ومثوبة ، قال - تعالى - : ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦) ﴾[٢] .

وإذا قام المسلم بهذه الأركان ، وبقى بعدها منطويا على الشر يتسرب منه الأذى إلى الناس ، فهو حينئذ بعيد عن الإيمان ، ولم تثمر عبادته الخلق الحسن ، فمأواه النار ، روى عن الرسول ﷺ : أن رجلا قال له : **«يارسول الله، إن فلانة تذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها غير أنها تؤذى جيرانها بلسانها. فقال: «هى فى النار» ثم قال: يارسول الله فلانة تذكر من قلة صلاتها وصيامها، وأنها تتصدق بالأثوار من الأقط** - أى بالقطع من الجبن - **ولاتؤذى جيرانها. قال: «هى فى الجنة»**[٢].

وبهذا يتضح لنا أن مجرد أداء هذه الفروض لا يفى إلا إذا اكتملت سائر شعب الإيمان ، وأثمرت هذه الفروض فى النفوس ، فإن الأركان هى الأصول والأسس التى تقوم عليها بقية الشعب ، وكثيرا ما كان الرسول ﷺ يجيب السائلين بها وبغيرها مراعاة

---

(١) سورة طه : (٧٥ - ٧٦) .

(٢) رواه أحمد .

لظروفهم ، وما يحتاجون إليه ، روى أن أعرابيا أتى النبى ﷺ **فقال : دلنى على عمل إذا عملته دخلت الجنة، فقال له : «تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان». فقال الأعرابى: والذى نفسى بيده لا أزيد على هذا، فلما ولى قال النبى ﷺ : «من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا»**[1].

فهنا ذكر للأعرابى الأسس والأصول ، ونراه فى حديث آخر يذكر بعضها الآخر ، عندما سئل عن أى الأعمال أفضل ، عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : «**سئل رسول الله ﷺ أى العمل أفضل ؟ قال : إيمان بالله ورسوله. قيل: ثم ماذا ؟ قال: الجهاد فى سبيل الله، قيل: ثم ماذا ؟ قال: حج مبرور**»[2].

وفى حديث آخر يوجه أنظار المسلمين وقلوبهم إلى بقية شعب الإيمان :

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ قال : «**الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»[3].

وبهذا يوضح الرسول ﷺ ما يشتمل عليه الإيمان من شعب كثيرة تتفاوت علواً ونزولا ، فأعلاها : لا إله إلا الله ، وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق ، أى تنحية ما يؤذى من طريق المسلمين ، والبضع : من الثلاثة إلى العشرة ، وقيل إلى التسع ، والشعبة هى

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) متفق عليه .
(٣) متفق عليه .

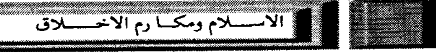
الخصلة ، والحياء : هو خلق كريم يبعث على اجتناب القبيح ويمنع من التقصير فى حق ذى الحق ، وينشأ نتيجة الخوف والمراقبة ، فيعصم صاحبه من الزلل ويحفظه من التردى فى مزالق الشر ، كما جاء فى أحاديث أخر بينت ثمراته : «**الحياء خير كله**» ، «**الحياء لا يأتى إلا بخير**» وليس من الحياء أن يمتنع الإنسان عن قول الحق ، فليس هذا من الدين بل هو عجز ومهانة ؛ وإنما خص الحياء بالذكر لما له من أثر فى السلوك ، ودعوة إلى حميد الفعال ، ولهذا كان من شعب الإيمان مع أنه من الغرائز وذلك لأنه لابد فيه من نية واكتساب وإخلاص فكان من الإيمان من أجل كل هذا ، وقد اجتهد بعض السلف فى حصر ما تفرعت عنه شعب الإيمان ، فمنها ما يتعلق بأعمال القلب : كالإيمان والإخلاص ، ومنها ما يتعلق بأعمال اللسان : كالتوحيد والذكر ، ومنها ما يتعلق بالبدن : كالصلاة والحج ... وهكذا يتبين لنا من الحديث : اشتمال الإيمان على فعال حميدة كثيرة ، كما يتضح أهمية الحياء فى الإسلام .

بعد هذا ننظر للإخلاص من زاوية أخرى هى الإخلاص فى المعاملات .

ثالثا: الإخلاص فى المعاملات :

إن أساس المعاملات الجارية : هو العمل : لأنه يتفرع إلى فروع عديدة : فهناك العمل التجارى ، والزراعى ، والصناعى ، والذهنى .

وما إلى ذلك من الأعمال التى يترتب عليها تعامل الناس بعضهم مع بعض ، ومن أجل هذا رفع الإسلام من قيمة العمل ، وبين منزلته ، عن المقداد بن معد يكرب - رضى الله عنه - عن


النبى ﷺ قال : «**ما أكل أحد طعاما قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود - عليه السلام - كان يأكل من عمل يده**»[1].

وليس المراد بهذا الحديث خصوص الأكل ، بل المراد كل أنواع الانتفاع من المال ، ولكنه خص الأكل بالذكر ؛ لأنه أظهر وجوه الانتفاع .

والأكل من عمل اليد خير لصاحبه فى الدنيا ؛ لصون كرامته ، وفى الآخرة لمزيد مثوبته ، وقد حث الإسلام على الإخلاص فى العمل حتى يتقنه صاحبه ، ويحسن أداءه ، فقال ﷺ :«**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه**» وضرب الرسول ﷺ المثل على شرف العمل بأن داود - عليه السلام - مع ما كان عليه من الغنى ، وتوافر المال ، فكان يأكل من عمل يده ، فيصنع الدروع ويبيعها ، وفى هذا بيان لأهمية هذا النوع من الصناعات الحربية ، فهل بعد هذا يسمع لما يثيره أعداء الإسلام من أنه لا يدعو إلى العمل بل يدعوهم إلى التواكل ؟

وحسبنا - بالإضافة إلى ما سبق - أن نبرز هنا قاعدة هامة وهى : أن الله - تعالى - لم يأمر بالتوكل إلا بعد الأمر بالعمل قال - تعالى - : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾[2] كما ربط بين الأسباب ونتائجها فأمر السيدة مريم أن تهز النخلة لتساقط عليها الرطب ، ولو شاء لأنزله من غير عناء ، قال - تعالى - : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) ﴾[1] ، وينبغى ألا يتخذ أحد من العمل ذريعة للتفريط

(١) رواه البخارى .

(٢) سورة آل عمران : (١٥٩)

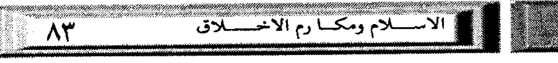
فى طاعة الله وعباداته وفروضه ، فإن العمل طريق إلى مرضاة الله ، فلا يصح أن ينسى صاحب العمل ربه .

وقد رفع الإسلام قيمة العمل مهما كان نوعه ، قال ﷺ : **«لأن يأخذ أحدكم حبله، ثم يأتى الجبل فيأتى بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه»**[2].

وهكذا يطلعنا الحديث الشريف على منزلة العمل ، والرد على أعداء الإسلام الذين يرمون المسلمين بالتواكل ، كما يدعو إلى سائر أنواع الصناعات ، لاسيما الصناعة الحربية . وأن السعى فى العمل لا يتنافى مع التوكل ، بل إن التوكل الحقيقى هو فى الحديث الأخذ بالأسباب مع الاعتماد على الله ، والإخلاص له فى كل حركة وسكون . بعد هذا نرى أن الإسلام قد نَقّى مجرى المعاملات من كل شائبة ، وعالج كل داء يمكن أن يستبد بها أو يعترض طريق الإخلاص فيها ، فوجه الإسلام أتباعه إلى ضرورة الإخلاص على جميع مستويات المعاملات ، وقاوم سائر الآفات التى تحول دون الإخلاص أو تكون نتيجة عدم الإخلاص : كالرشوة ، والكذب ، وخلف الوعد ، والخيانة ، والظلم ، والشح ، وظن السوء ، والتحسس ، والتجسس ، والتنافس فى أمور الدنيا ، والتحاسد ، والتباغض ، والتدابر ، وما إلى ذلك من الآفات الضارة التى لا يمكن أن يجتمع معها الإخلاص فى قلب المسلم .

---

(١) سورة مريم : (٢٥) .
(٢) رواه البخارى .



أما بالنسبة إلى آفة الرشوة:

فقد أبان الإسلام خطرها وحرمتها ، سواء كانت للحاكم ، أو للقاضى أو للعامل ، أو لمن بيده إنجاز عمل مّا من الأعمال .

أما بالنسبة لرشوة الحكام ، فقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨) ﴾[١]. فحرم الإسلام مصانعة الحكام من أجل اقتطاع حق الغير ، واشتراء ذمتهم بالمال ، فإن فى هذا طردا للراشى ، وطردا للمرتشى من رحمة الله – تعالى – ، وفى الحديث عن أبى هريرة – رضى الله عنه – : «**لعن الله الراشى والمرتشى فى الحكم**»[٢] .

وأما الرشوة للقضاة : فهى محرمة ، روى الطبرانى بسنده عن عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه– قال : «**الرشوة فى الحكم كفر، وهى بين الناس سحت**» والسحت : أن تطلب لأخيك حاجة ، فتقضى فيهدى إليك هدية فتقبلها منه .

وأما بالنسبة للعمال ، فقد حرم الإسلام على العامل أخذ رشوة ، أو هدية ، لأنها حينئذ تهدى إليه من أجل علة ، فهى حرام .

عن أبى حميد الساعدى أنه قال : **استعمل النبى ﷺ رجلا من الأزد يقال له: ابن اللُّتْبية على الصدقة، فلما قدم قال: هذا لكم وهذا**

(١) سورة البقرة : (١٨٨) .

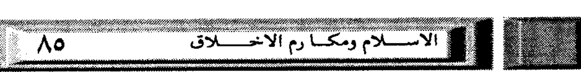
(٢) رواه أحمد والترمذى والحاكم .

أهدى إلىّ، قال: فقام رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، فإنى أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولانى الله فيأتى فيقول: هذا لكم وهذا هدية أهديت لى، أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقا؟ والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حله، إلا لقى الله يحمله يوم القيامة، فلا أعرفن أحداً منكم لقى الله يحمل بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر، ثم رفع يديه حتى رئى بياض إبطيه يقول: «اللهم قد بلغت[1]»..

وهذا الرجل : اسمه عبد الله ، وقيل : إن اللُّتْبية أمه – وهى بضم اللام المشددة وسكون التاء نسبة إلى بنى لتب قبيلة معروفة – ولقد جعل الرسول ﷺ هذا الرجل عاملا على جمع الزكاة ، فلما رجع ، أعطى بعض ما جاء به ، وأبقى البعض الآخر قائلا : هذا لكم وهذا أهدى إلىّ ، وهنا أسرع الرسول ﷺ بعلاج آفة من شر الآفات ، ولو تسربت فى مجتمع نخرت عظامه وانهار : لما يترتب على الرشوة من تقدم الراشى إلى الأمام ، وإلغاء أصحاب الكفاءات وتخطى أولى الجدارة فى المناصب ، إن من تحدد له أجر على عمله فليس له أن يأخذ أكثر منه ، مما يصل إليه عن طريق العمل .

وبهذا كان للإسلام فضل السبق على سائر النظم الحديثة ، فى تشريع قانون الكسب غير المشروع ، قانون : من أين لك هذا ؟ ولئن كان ما ورد عن الرسول ﷺ هو أخذ الزائد من الرجل وإعطاؤه حقه فحسب دون عقاب ، إلا أن ذلك إنما كان لأن الرجل كان

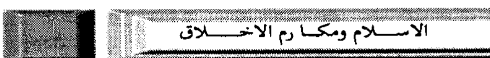
(١) رواه الشيخان .



متأولا فى تصرفه ، ظانا أن له الاستقلال بما أهدى إليه ، فميز الرسول ﷺ بمحاسبته تلك بين الرشوة والهدية ، وأن الهدية إنما تجوز عندما لا توجد شائبة أخرى ، من جلب منفعة أو الوصول إلى غرض ، أما إن شابتها شائبة ، فإنها عندئذ تصبح رشوة ، روى ابن سعد من طريق فرات بن مسلم قال : **اشتهى عمر بن عبد العزيز التفاح، فلم يجد فى بيته شيئا يشترى به، فركبنا معه فتلقاه غلمان الدير بأطباق تفاح، فتناول واحدة فشمها ثم رد الأطباق، فقلت له فى ذلك فقال : «لا حاجة لى فيه. فقلت: ألم يكن أبو بكر وعمر يقبلون الهدية؟ فقال: إنها لأولئك هدية وهى للعمال بعدهم رشوة».**

وقد وجه الرسول ﷺ خطبته دون تعيين صاحب الواقعة سترا عليه ، ووضح أن من أخذ شيئا بغير حله : أى بغير طريق إلى الحلال ، فإن عقابه سيكون مفتضحا بين الخلائق يوم القيامة ، فإذا ما أخذا بعيرًا حمله على عنقه له رغاء - أى صوت البعير - أو بقرة لها خوار - صوت البقر - أو شاة تيعر - أى تصيح - واليعار : صوت الغنم . ثم أكد ضرورة محاسبة الحكام لمن يتلاعبون بأمور المسلمين ، وتأمين المحكومين من ظلم الحكام ، ومحاسبة من يستغلون مناصبهم لمنافعهم الشخصية ، ولئن استطاعوا أن يخفوا شيئا فى الدنيا عن الناس فلن يستطيعوا أن يخفوه على من يعلم السر وأخفى ، فلسوف تكشف أسرارهم على ملأ من الناس يوم القيامة .

ومن الإخلاص فى المعاملات : الصدق فى الحديث ، والوفاء بالوعد ، وأداء الأمانة ، أما الكذب والخلف والخيانة فهى آفات




لاتظهر إلا حيث ينضب الإخلاص ، ويجف ويأخذ مكانه ، فتلك هى علاماته .

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**» **(متفق عليه)**.

وهذا الحديث يوضح آية المنافق - أى علامته - .

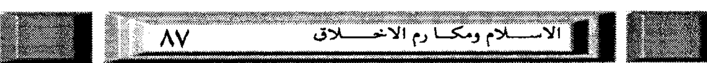
والنفاق نوعان: نفاق أكبر ، وهو إظهار الإيمان وإخفاء الكفر ، ونفاق أصغر ، وهو نفاق المعاملات وهو المقصود فى هذا الحديث ، **وهذه العلامات ثلاث خصال هى :**

١ - الكذب فى الحديث ، وهو : مخالفة الخبر للواقع .

٢ - خلف الوعد ، وهذا إذا كان الوعد خيرا ، أما الوعيد بالشر فيجب خلفه .

٣ - خيانة الأمانة ، وهى تشمل : تكاليف الدين ، وخيانة ما اؤتمن عليه من ودائع الناس وغير ذلك .

وإنما اقتصر فى ذكر العلامات على هذه الأمور؛ لأنها الدالة على سائر الخصال الأخرى، فإن أصل الدين ينحصر فى ثلاث: القول والفعل والنية، أما القول: فنبة على فساده بالكذب، وأما الفعل فأشار إلى فساده بالخيانة، وأما النية فأشار إلى فسادها بالخلف، وما عدا ذلك من الصفات الأخرى التى وردت بها بعض الروايات فهى داخلة فيها. من ذلك: ما رواه البخارى: «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن



خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» فإن غدر العهد هو : خلفه ، والفجور فى الخصومة هو : خروج عن الحق ، وهو من مظاهر الكذب ونتائجه .

فالحديث إذًا يرشد إلى تطهير البيئة الإسلامية من خصال الشر ، ويحذر من خصال المنافقين ، ويبرز أهم صفات المنافق الذى أصبح بعيدًا عن الإخلاص .

وهناك أمور أخرى تتنافى مع الإخلاص ، منها ما يتعلق بالفعل والحس كالظلم والشح ، ومنها ما يتعلق بالنفس والشعور كالظن والحسد ، وقد حذر الإسلام من ذلك كله أشد التحذير ، فأما الأمور المتعلقة بالفعل فهى التى أشار إليها الحديث الآتى :

عن جابر – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : **«اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»**[1].

وبهذا الحديث يتضح موقف الإسلام من هاتين الآفتين ، وبيان ما ينطويان عليه من خطر داهم ، فأما الظلم : فنهى عنه رسول الله ﷺ : بقوله : **«اتقوا الظلم»** أى اجتنبوه ، والظلم : هو وضع الشىء فى غير موضعه أو التصرف فى حق الغير دون عدل ، ثم بين العلة فى هذا بقوله : **«فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»** تتراكم على بعض إذا خرج من ظلمة دخل فى أخرى ، وأما فى الدنيا :

---

(١) سورة النمل : (٥٢) .

فعاقبة الظلم وخيمة ، تنتهى بأصحابها إلى الهلاك ، قال - تعالى - : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾[1] وأما الشح : فيعتبر سبباً للظلم ، فهو الحرص الشديد على المال وجمعه بشتى الوسائل ، وعدم إنفاقه فى وجوه الخير المشروعة فيظلم بهذا التصرف أصحاب الحقوق ، وقد يراد من الشح أشد البخل ، ثم وضح السبب فى التحذير منه ، بأنه كان سببًا فى إهلاك من كان قبلكم من بنى إسرائيل حملهم على أن سفكوا دماءهم بالقتل ، واستحلوا محارمهم ، فحللوا ما حرمه الله عليهم كالشحوم والصيد يوم السبت ، وفى النهى عن الظلم توجيه إلى العدل فى جميع صوره : العدل فى العمل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾[2] والعدل فى القول : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾[3] والعدل فى الشعور والحس كما سيأتى فى حديث : «**إياكم والظن...**» وفى النهى عن الشح توجيه إلى السخاء الذى يصل بصاحبه إلى الفلاح ، حيث وقاه شح نفسه قال - تعالى - : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾[4] وهكذا يحذر الإسلام من الآفات التى تتعلق بالفعل والحس من ظلم وشح ، نهوضًا بالمجتمع الإسلامى إلى أسس العدل والتعاون التى يترعرع فيها الإخلاص ، وينمو دون عائق ما من تلك العوائق ، وأما الأمور الأخرى التى تتنافى مع

(١) سورة النمل : (٥٢) .
(٢) سورة النحل : (٩٠) .
(٣) سورة الأنعام : (١٥٢) .
(٤) سورة الحشر : (٩٠) .

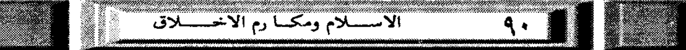
الإخلاص فهى الآفات التى تتعلق بالنفس والشعور والإحساس :

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : **«إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا - عباد الله - إخوانا»**[1].

وهنا يتناول الحديث التحذير من عدة آفات إذا وجدت استبدت بالنفس الإنسانية ، وهى آفات تتنافى مع الإخلاص وهى : ظن السوء وقد أبان الحديث علة النهى عنه بأنه أكذب الحديث ، فاعتبر الظن أكذب الحديث مع أن الكذب لا يكون إلافى الأقوال وذلك لما يترتب على الظن ، فأطلق السبب وأراد المسبب ، أو أن الكذب وهو : عدم المطابقة للواقع يشمل اعتقاد القلب وقول اللسان ، كما حذر من التحسس وهو : الاستماع لحديث القوم ، والتجسس وهو : تتبع العورات قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً﴾[2] ثم نهى عن التنافس فى أمور الدنيا وهو : الذى يؤدى إلى العداوة والبغضاء .

ونهى عن الحسد وهو : تمنى زوال نعمة الغير ، والحسد إنما ينبت فى القلوب التى ضعف إيمانها ، فيظهر فيها هذا المرض معلناً

(١) أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم .
(٢) سورة الحجرات : (١٢) .



الاعتراض على ما قضاه الله ، ومن هنا كان الحسد يأكل حسنات صاحبه كما قال الرسول ﷺ : «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» فهو يأكل حسناته ، ويسد عليه وجوه الطلب ولله در القائل :

ألا قل لمن بات لي حـــاســـداً ... أتدري على من أســأت الأدب؟
أســأت على الله في فــعله ... لأنك لم ترض لي مــا وهب؟
فــجــازاك ربي بأن زادني ... وســد عليك وجــوه الطلب

ثم نهى عن التباغض ، والنهي عن التباغض إنما هو نهي عن أسباب العدوان على النفس والعرض والمال ، ثم نهى عن التدابر وهو : المقاطعة وترك السلام ، وفي هذا توجيه لتنقية العلاقات الإنسانية ، وغرس أصول الود والحب ، قال ﷺ : «**لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم**» ثم وجه المسلمين جميعا أن يتعاملوا معاملة الإخوة في التعاون والحب والود ، وبهذا يرقى المجتمع الإسلامي وتنتفي منه أسباب العداوة وعوائق الإخلاص .

رابعاً : الإخلاص في الجهاد:

يتضح الإخلاص في الجهاد ، بأنه في سبيل الله وحده ، فهو بعيد عن أي مقصد آخر مما يقصده أعداء الإسلام ، ودول الاستعمار ، وأهل السلب والنهب ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[1] .

---

(١) سورة التوبة : (١١١) .

وقد بين الرسول ﷺ جزاء المجاهد فى سبيل الله عز وجل . عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : **قيل للنبى ﷺ : مايعدل الجهاد فى سبيل الله - عز وجل - ؟ قال : لا تستطيعونه. قال : فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا، كل ذلك يقول: لا تستطيعون، وقال فى الثالثة: مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله - تعالى -**»[1] .

ومعنى القانت هنا : المطيع . و «يفتر» أى يقل نشاطه ، أما معنى «**فى سبيل الله**» فالمراد به كونه خالصا لله – تعالى – ، يوضح ذلك ما روى عن أبى موسى قال : **سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية؛ ويقاتل رياء، أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله**»[2] وقد صور الحديث ما للجهاد من فضل عظيم ، حيث كان مثله مثل من لا يفتر من صلاة وصيام وقيام فى لحظة من اللحظات ومثل هذا العمل لا يتأتى لأحد ، ولذا كان الجواب : «**لا تستطيعونه**» وإنما اقتصر على الصلاة والصيام ؛ لأنهما أهم الأركان فالصلاة عماد الدين ، والصيام تكفل الله بثوابه ، بل إنه شبه حال المجاهد بحال المصلى الصائم المستديم لا ينقطع عن ذلك ، وهى صورة نادرة بل مستحيلة ، فدل ذلك على عظم ثواب

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه مسلم .

المجاهدين ، كما دل الحديث كذلك على استمرار ثواب المجاهد فى جميع حالاته مادام فى الجهاد ، حتى وهو فى سكونه أو منامه مادام الأساس موجودًا وهو أنه : «**فى سبيل الله**» ، قال الحافظ بن حجر : شبه حال المجاهد فى سبيل الله بحال الصائم القائم فى نيل الثواب فى كل حركة وسكون لأن المراد من الصائم القائم من لا يفتر ساعة عن العبادة فأجره مستمر ، وكذلك المجاهد لا تضيع ساعة من ساعاته بغير ثواب . اهـ .

وبما يستدل به على استمرار هذا الأجر ، قول الله- تعالى - : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) ﴾[٢] .

(١) سورة التوبة : (١٢٠) .

ثمرة الإخلاص:

بعد هذا نرى للإخلاص ثمرة حسية هى : ما يجنيه المخلص فى دنياه من زيادة الخير ، والنهوض إلى مستوى الحياة الطيبة الآمنة ، وله ثمرة معنوية هى : «حلاوة الإيمان» وتلك الثمرة إنما تظهر بالإخلاص فى العقيدة ، فيتمسك بالتوحيد ويكره أن يعود فى الكفر ، وبالإخلاص فى العبادة فيكون الله ورسوله وما جاء به من القرآن والسنة أحب إليه مما سواهما ، وبالإخلاص فى المعاملات فيحب المرء لا يحبه إلا لله ، وبالإخلاص فى الجهاد لحراسة هذه المبادئ ، وصيانتها من أعداء الإسلام ، وفى ذلك روى عن أنس- رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار»**[1] .

وقد رأى بعض العلماء أن حلاوة الإيمان حسية ، يتذوقها كل من وجدت فيه العلامات السابقة ، مستدلين بما كان من بلال وهو تحت وطأة التعذيب يقول : أحد ، وبما كان منه عند سكرات الموت وأهله يقولون : واكرباه ، فقال : واطرباه :

غدا ألقى الأحبة محمداً وحزبه

ويرى بعض العلماء : أن المحبة عقلية تنشأ عن إيثار ما يقتضى العقل السليم رجحانه وإن خالف هوى النفس .

---

(١) رواه البخارى .

وينبغى أن تكون محبة الله ورسوله مقدمة على كل ما سواهما ، وقد أنذر الله - تعالى - من قدم شيئا آخر عليهما بقوله :

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾[١] .

والمحبة : هى ميل المحب إلى حبيبه وإيثاره له ، وأما بالنسبة للعلامة الثانية : فهى أن يكون حبه للمرء على أساس ماهو عليه من الإيمان ، وباعتباره يمثل المبادئ القويمة والسلوك المستقيم ، فهو لا يحبه إلا لله .

وأما بالنسبة للعلامة الثالثة : فهى مترتبة على ما سبق ، فمن صحت عقيدته وتأكد مما وعد الله به المؤمنين اطمأن إيمانه ورسخ ، فكره الكفر كراهيته للعذاب الناشئ عنه ، ويستشعر المسلم حلاوة الإيمان فى كل قول وعمل وفكر ، بل وفى الأعمال العادية حينما يجعلها خالصة لله وفى مرضاته - سبحانه وتعالى- ، وخص هذه الأمور الثلاثة لأنها من أعمال القلب لا يخالطها رياء ، وإنما سمة صاحبها الإخلاص الكامل الذى يؤتى ثماره الطيبة المجموعة فى «حلاوة الإيمان» .

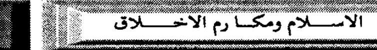
---

(١) سورة التوبة : (٢٤) .



الخُلُقُ هيئةٌ نفسيةٌ ثابتة تصدر عنها الأفعال الحميدة من غير تكلّف أو تعسف .

وقد وثّق الإسلام صلة الخلق بخالقهم ، وعمل على تزكية العلاقات الإنسانية وتنميتها ، فمهد لها تربتها الطيبة المنجبة ، وذلل كل وسائل الولاء والنّقاء بما أشاعه فيها من خصب ، وما بثه فى جوانبها من مكارم مترعة بكل المثاليات ، وما طهر به مجرى حياتها من رذائل كانت تشكل ظلمات بعضها فوق بعض ، وكان النموذج الحى الذى تمثلت فيه طهارة الظاهر ، ونقاء الباطن ، هو السلوك النبوى الشريف ؛ فقد بعث الرسول ﷺ متمما لمكارم الأخلاق ، وموضحا لها بسنته المطهرة قولا وعملا ، واحتوت هذه المكارم آمال الناس فى شتى الجوانب وهيَّأت للحياة الطيبة مناخها الملائم ، وجوها الرحب ، وامتدت أنظارها الحية ، وأبعادها الحانية حتى شملت القريب والغريب ومن لايستقل بأمره ومن يستقل ، كل ذلك نلمحه فى ضوء العبارة البليغة التى قالتها السيدة خديجة بنت خويلد عندما رجع الرسول ﷺ يرجف فؤاده ، ودخل عليها وقال : **«زمّلونى زمّلونى»** فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : **«لقد خشيت على نفسى»** **فقالت له خديجة: كلا والله مايخزيك الله أبدا؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق».**




فالسيدة خديجة ـ رضوان الله تعالى عليها – عندما استشفّت روحها الأمر العلوى وأبصرت أضواء الوحى الإلهى رقراقة على جبين الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ طَبقت ذلك على أحواله النابضة بكل مكرمة ومعروف ، فرأت أن الكل إنما ينبع من مشكاة واحدة ، فأصدرت حكمها بأن الله لايخزيه أبدا ، وأقسمت على ذلك وأردفت القسم بالدليل المطابق الذى يتضمن جماع مكارم الأخلاق .

ولقد تمثلت أعظم المكارم وأسماها فى الرسول ﷺ ؛ فانبعثت من نفسه الشريفة عظمة الأخلاق المشرقة ، ووصفه ربه بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1] .

وتحدث هو بنعمة الله عليه بقوله : «**أدبنى ربى فأحسن تأديبى**» . كما شرحت السيدة عائشة ـ رضوان الله عليها ـ ماهية الخلق النبوى فى إيجاز ودقة : «**كان خلقه القرآن**» والقرآن هو كلام الله العزيز الحكيم ، فكأن كل فضيلة حض عليها ، وكل صفة حميدة دعا إليها قد اتصف بها الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ، وهى تتركز فى صفات مثلى وأسماء حسنى اتصف بها العلىّ القدير سبحانه ، وكانت هذه الصفات هى منابع الأخلاق الأصيلة ، وجماعها ، يقول المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه (الفلسفة القرآنية) : و(جماع هذه الأخلاق كلها هو تلك الصفات التى اتصف بها الخالق ـ سبحانه ـ فى أسمائه الحسنى ، وكلها مما يحمد للإنسان أن يروض نفسه عليه ، وأن يطلب منه

---

(١) سورة القلم : (٤) .





أوفى نصيب يتاح للمخلوق المحدود فيما عدا الصفات التى خص بها الخالق دون سواه) .

ووقوف الإنسان على الفضائل الجليلة ، والتحلى بمكارم الأخلاق يحتاج إلى مقاومة لكل نوازع النفس ، والهوى ، متأهبا فى كل ذلك بعزم الأمور ، وهو ما قطعة لله على عباده من الأمور لمزيد أهميتها ومزيَّتها .

قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾(١) .

وقال ـ تعالى ـ فيما يحكيه من وصايا لقمان لابنه : ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾(٢) .

وقد تجمعت مكارم الأخلاق فى الرسول ﷺ ، فكان أحسن الناس خلقا ، وأطهرهم قلبا ، وأنقاهم ضميرا ، وأجملهم وجها ، وأزكاهم رائحة ، فجمع جمال الظاهر وصفاءه ، وطهارة الباطن ونقاءه ، عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : **«كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقا»**.

وقال : **«ما مَسِسْتُ ديباجا ولا حريرا ألين من كف رسول الله ﷺ ، ولا شممتُ رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ ولقد خدمت رسول الله عشر سنين، فما قال لى قط أف، ولا قال لشىء فعلته: «لم فعلته»؟ ولا لشىء لم أفعله: «ألا فعلت كذا»**.

---

(١) سورة الشورى : (٤٣) . (٢) سورة لقمان : (١٧) .

وقد أبرز القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أثر الخلق الحسن وكشف لنا الرسول ﷺ عن آثاره ونتائجه قولا وعملا فى الدنيا وفى الآخرة يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[١].

وهكذا ترى نتيجة الخلق الحسن فى الدنيا ، وكيف يعالج به القرآن نفوس البشر بهديه الناجع ، وشفائه لما فى الصدور ، وكيف يتحول به العدو المتربص إلى صديق حميم ، وهنا يصل الإسلام بالإنسانية إلى مرافئ الأمان ، وطمأنينة النفس ، ويمسح كل ما علق بالجو النفسى من إحن وأضغان ، ويزرع فيها كل معانى الولاء والتعاطف ، حيث يتماسك المجتمع الإسلامى ، وتعزف حياته معانى النبل والتسامح .

وقد طبق الرسول ﷺ ذلك قولا وفعلا ؛ عن عبد الله بن عمرو ابن العاص ـ رضى الله عنهما ـ قال : لم يكن رسول الله ﷺ فاحشا ولا متفحشا وكان يقول : «**إن من خياركم أحسنكم أخلاقا**».

كما بين ذلك بفعله فكان بحق الأسوة الحسنة ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾[٢]. وفى الحديث ـ المتفق عليه ـ عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت للنبى ﷺ :

---

(١) سورة فصلت : (٣٤ ، ٣٥) .
(٢) الأحزاب : (٢١) .

(هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيته يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسى وإذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فنادانى فقال :

إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فنادانى ملك الجبال فسلم على ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال، وقد بعثنى ربى إليك فتأمرنى بأمرك فما شئت؟ إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين ـ وهما الجبلان المحيطان بمكة ـ فقال النبى ﷺ : «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا»

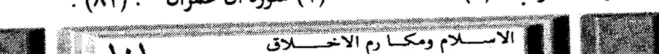
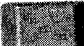
كما وضح الرسول ﷺ نتائج الخلق الحسن فى الآخرة وأن المؤمن ليدرك بها عند ربه درجة تبلغ فى سموها مكانة الصائم القائم فكأنها عبادة مستمرة تنشر ظلالها الوارفة فى الحياة الدنيا وتؤتى ثمارها الطيبة فى الآخرة ، روى أبو داود عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : سمعت النبى ﷺ يقول : «**إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**» ، ومعلوم أن الصيام والقيام لونان من ألوان العبادة وهما أبعد العبادات عن المراء والتظاهر لما ينطويان عليه من الإخلاص التام لله حيث يتمان فى السر ويملآن الوعاء الزمنى كله نهارًا بالصيام وليلاً بالقيام ولا يعلم حقيقتهما إلا علام الغيوب ، وإنما يصل المرء بحسن خلقه هذه الدرجة ؛ لأنه بلغ فى صفاءِ سريرته ما بلغه الصائم القائم فيها ، ثم إن رعاية الرسول ـ

صلوات الله وسلامه عليه ـ للأخلاق لا تقف عند بيان ما تضمنته من مثوبة تبلغ مثوبة الصيام والقيام فحسب ، بل إن اهتماماته لتتابع مسيرة الأخلاق حتى تجلى لنا منزلتها فى الدين ، ومكانتها بالنسبة للإيمان ، ثم تبرز وزنها العظيم فى ميزان العدل الإلهى . يوم توضع الموازين القسط ، بل إنه ليكشف لنا عن حفاوته بالأخلاق ورعايته لأربابها ، فيوضح مالها من مكانة مرموقة ، ودرجة سامقة هى أعلى ما يكون فى الجنة ثم لايقف أصحاب الأخلاق الحسنة عند هذه الدرجة الرفيعة ، وإنما يكونون مع هذا أقرب الناس مجلسا من الرسول ﷺ يوم القيامة .

أما بالنسبة لمنزلة الأخلاق من الإيمان فبها يكمل الإيمان ، روى الترمذى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : **«أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائهم»**.

وأما بالنسبة لوزنها فهى أثقل ما يوضع فى الميزان روى الترمذى عن أبى الدرداء ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال : **«ما من شىء أثقل فى ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق وإن الله يبغض الفاحش البذىء..»**.

وفى بيانه ﷺ لأثر الأخلاق فى دخول الجنة يقول فيما رواه الترمذى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : **سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة قال: «تقوى الله وحسن الخلق» وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار قال: «الفم والفرج»**.


ويضمن الرسول ﷺ لأصحاب الأخلاق الحسنة أعلى الجنة

(١) سورة الأحزاب :(٧) .   (٢) سورة آل عمران : (٨١) .

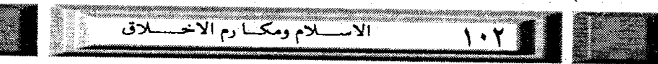
روى أبو داود عن أبى أمامة الباهلى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «**أنا زعيم[1] ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا وبيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا وبيت فى أعلى الجنة لمن حسن خلقه**» ، وفيما رواه الترمذى عن جابر - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «**إن من أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، وإنّ أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون. قالوا: يارسول الله قد علمنا «الثرثارون» و «المستشرقون» فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون**» . ومن تفسير الرسول ﷺ للخلق ما رواه مسلم عن النواس بن سمعان - رضى الله عنه - قال : **سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: «البر حسن الخلق والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس».**

وروى الترمذى بسنده عن عبد الله بن المبارك - رحمه الله - فى تفسير حسن الخلق قال : «**هو طلاقة الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى**».

ولقد دعا الرسول ﷺ الناس جميعًا إلى مكارم الأخلاق منذ بدأ يقيم بناء الأمة ولم يكن لديه سلطة قانونية يؤدب بها المخالفين ولا ثروة طائلة يغرى بها طلاب الدنيا .

إذًا فما الذى جعل الناس يهرعون إلى دعوته ويضربون أروع الأمثلة فى البذل والتضحية من أجله؟ إنها الطاقات الوجدانية التى ألهبت عواطفهم الجياشة بالإيمان اقتداء واهتداء بالنور الذى اتبعوه ، وإنه الرصيد الجم من مكارم الأخلاق التى انبعثت من حياة الرسول ﷺ فثبتت بها عقيدتهم ، وترعرع بها سلوكهم ،

(١) الزعيم : الضامن ، ربض الجنة : حولها .



فشب من أعماقهم وازع الضمير ، يقرع قلوبهم بين الفينة والفينة ، إن علاّم الغيوب مطلع يعلم السر وأخفى ، وإن الحى القيوم لا تأخــذه سنة ولا نوم : ﴿ مَـا يَكُونُ مِن نَّجْـوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾(١) ، ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾(٢) .

وهل هناك سلطة قانونية كانت أشد وأقوى من ذلك عندهم ؟ وهل هناك ثروة طائلة أروع من الرصيد الهائل الذى فرش حياتهم بأضواء الأمن والسعادة وانتزع سلطان المتجبرين ورد بطش المتسلطين؟ لقد رأوا ذلك كله رأى العين فصدقوا ما عاهدوا الله عليه فى السر والعلانية وأرهفوا إحساسهم إليه ، وكونوا بقلوبهم المؤتلفة أعظم مجتمع إسلامى متوحد كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

هذا . . وإن العقيدة والخلق لصنوان لاينفصلان فالعقيدة دون الخلق لاتؤتى ثمارها التى من أجلها كانت التشريعات السماوية ، والخلق دون العقيدة هباء منثور لا أصل له ولا قيمة .

وتتبين لنا القيمة الأخلاقية كصمام لحياة المسلم ومعتصم لايتخلى عنه من صدقت عقيدته حتى فى أحرج الأوقات .

ونظرة سريعة إلى المسلمين الأوائل . . إذا أصاب أحدهم نزغ من الشيطان فاقترف الخطيئة تحرك وازع الأخلاق من نفسه وأحس بفداحة جرمه ، فيلتمس الطهارة منه ، ويتقدم لنيل جزائه عليه فى الدنيا قبل الآخرة .

---

(١) سورة المجادلة : (٧) .
(٢) سورة النحل : (١٩) .

روى الإمام مسلم بسنده عن بريدة قال : (**جاء ماعز بن مالك إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله طهرنى، فقال: «ويحك فاستغفر الله وتب إليه» قال: فرجع غير بعيد ثم جاء، فقال: يا رسول الله طهرنى، فقال رسول الله ﷺ: «ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه». قال: فرجع غير بعيد ثم جاء فقال: يا رسول الله طهرنى، فقال النبى ﷺ مثل ذلك حتى إذا كانت الرابعة، قال له رسول الله ﷺ: «فيم أطهرك؟» فقال: من الزنا. فسأل رسول الله ﷺ: أبه جنون؟» فأخبر أنه ليس بمجنون، فقال: «أشرب خمرا؟» فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر. قال: فقال رسول الله ﷺ: «أزنيت؟» فقال: نعم. فأمر به فرجم ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس فسلم ثم جلس فقال: استغفروا لماعز ابن مالك، قال: فقال رسول الله ﷺ: لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم»**).

وهكذا نرى كيف سمت أرواحهم وصفت ، فحافظوا على أحكام الشريعة ، ونفذوا حدودها مهما كلفهم ذلك .

الرحمة:

قال الراغب فى المفردات : **الرحمة**[1]**: رقة تقتضى الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة فى الرقة المجردة، وتارة فى الإحسان المجرد دون الرقة، نحو: رحم الله فلانا، وإذا وصف بها البارى فليس يراد بها إلا الإحسان المجرد دون الرقة.**

ولا يطلق الرحمن إلا على الله ـ تعالى ـ من حيث إن معناه لا يصح إلا له إذ هو الذى وسع كل شىء رحمة ، والرحيم :

(١) المفردات صفحة ١٩١ .

يستعمل فى غيره ، وهو الذى كثرت رحمته قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وقال فى صفة النبى ﷺ : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] . وقيل : إن الله رؤوف رحيم . وقيل : إن الله ـ تعالى ـ هو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة وذلك أن إحسانه فى الدنيا يعم المؤمنين والكافرين ، وفى الآخرة يختص بالمؤمنين ، وعلى هذا قال : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾[2] . الخ الآيات تنبيها على أنها فى الدنيا عامة للمؤمنين والكافرين ، وفى الآخرة مختصة بالمؤمنين اهـ .

والناظر إلى رحمة الله ـ تعالى ـ يجد أنها سابغة ووافرة ، وكل سور القرآن الكريم افتتحت بوصف الرحمة لله : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ومن استغفار الملائكة للمؤمنين التائبين الذين اتبعوا سبيل الله : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾[3] .

ولقد وجّه الرسول ﷺ أنظار أصحابه إلى رحمة الله فى صورة محسوسة يمثلها لهم عندما رأى أُمًّا تضم طفلها فى شفقة ورحمة فقال : «**أترون هذه طارحة ولدها فى النار؟**» **قال أصحابه: لا والله يا رسول الله، قال:** «**لله أرحم بعباده من هذه بولدها**»[4].

---

(١) سورة التوبة : (١٢٨) .
(٢) سورة الأعراف : (١٥٦) .
(٣) سورة غافر : (٧) .
(٤) رواه البخارى .

كما أبرزت السنة الشريفة مقدار ما ادخره الله من رحمته يوم القيامة قال ﷺ : «**جعل الله الرحمة مائة جزء، وأنزل فى الأرض جزءا واحدا فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**»[1].

ولقد طبق الرسول ﷺ خلق الرحمة فى كل سلوكه ، وقد بينتها أقواله وأفعاله ؛ لأن الرحمة سر مبعثه ، وجوهر رسالته ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[2] ، وقال ﷺ : «**إنما أنا رحمة مهداة**» ، ولم تبرح الرحمة قلبه الشريف حتى فى أحلك الأوقات ومع أعدائه . ففى يوم أحد ـ عندما حاول الكفار أن يغتالوه ـ نظر إلى أصحابه ورأى ما هم فيه من شدة وما هو فيه من شدة ، فقد شق خده وسقطت سنه ، وقيل له : ادع على المشركين ، فقال : «**اللهم اهد قومى فإنهم لايعلمون**» .

أما أصحابه ﷺ ، فقد مثلوا المجتمع المؤمن الرحيم : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾[3] وذكر الشدة هنا ؛ لتقويم من يخشى منه فيحصر خطره وفى هذا رحمة له وللمجتمع .

ومن رحمة الله بالإنسان : ما روى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه ـ تبارك وتعالى ـ قال : «**إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله**

---

(١) رواه البخارى .

(٢) سورة الأنبياء : (١٠٧) .　　(٣) سورة الفتح : (٢٩) .

عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة»[1].

ومعنى الحديث : أن الله قدر جزاء الحسنات والسيئات ، وأمر ملائكته بكتابة ذلك ، فمن هم بحسنة أى طاعة ، والمراد بالهَمّ : الإرادة وهى مرتبة دون مرتبة التصميم ، وهو يفيد ترجيح الفعل على الترك وقيل : المراد بالهم : العزم . (فلم يعملها) بسبب أمر خارج عن إرادته فإن من رحمة الله أنه يكتبها له حسنة كاملة ، ويأمر الملائكة بكتابتها . أما إذا عملها فرحمة الله أوسع من أن يأخذ ثوابها فحسب ، بل إن الله يكتبها عنده عشر حسنات ، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة . أما السيئة فإن هم بها فلم يعملها ؛ خوفا من الله ، كتبها الله عنده حسنة ، وفى الحديث القدسى : «**إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها؛ فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة**»[2] .

ويحتمل أن هذا الجزاء لكل من تركها إلا أن من تركها خوفا من الله جزاؤه أكثر من غيره ، أما إذا عملها فإن الله يكتبها سيئة واحدة قال تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾[3] ، وبهذا يتضح لنا مدى رحمة الله الواسعة فيما يتعلق بالثواب والعقاب .

---

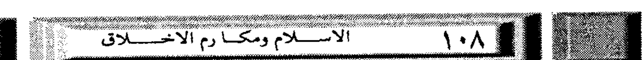
(١) رواه الشيخان . (٢) رواه البخارى .

(٣) سورة الأنعام : (١٦٠) .

وكما شرع الله - تعالى - رحمته لعباده ، شرع طرقا كثيرة لرحمة الإنسان .

بنفسه ، ورخصا عديدة فى العبادات فشرع التيمم فى الطهارة ، والإفطار فى الصيام للمسافر ومن به عذر ، والقصر والجمع والتخفيف فى الصلاة ، يقول ﷺ : **«إنى لأقوم إلى الصلاة وأريد أن أطوّل فيها فأسمع بكاء الصبى فأتجاوز فى صلاتى كراهية أن أشق على أمه»**.

ومن تعاليم الرسول ﷺ التى تداركت الإنسان بالرحمة وخلصته من التردى فى المعتقدات الفاسدة ، أو العدوى المهلكة ، من تعاليمه فى ذلك ما روى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **«لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، وفر من المجذوم كما تفر من الأسد»** فقد نفى هذا الحديث أمورا فى نفيها رحمة للعقيدة : «**لا عدوى**» أى لا تؤثر بذاتها بل بإرادة الله - تعالى - ، «**ولا طيرة**» أى لا تشاؤم بالطير فإنه لا يعلم الغيب إلا الله ، «**ولا هامة**» نفى لما كانوا يعتقدونه قديما وهو تمثل روح القتيل بطائر يصيح للأخذ بالثأر ، «**ولا صفر**» حيث كانوا يتشاءمون منه فلا يتاجرون ولا يتزوجون فيه ، ثم أمر بعد ذلك بالفرار من المجذوم ، والجذام مرض يتغير منه الجلد ويتناثر وهو يعدى بمجرد القرب منه ، وبهذا كان الإسلام له فضل السبق على النظم الصحية فى تقرير قواعد الحجر الصحى ، وأما ما ثبت أنه ﷺ أكل مع مجذوم ، فذلك ليبين أن الله هو الذى يمرض ويشفى وبيده كل شىء ، أو لعله ألهم أنه لن يصاب بشىء وفى فعله تنبيه على أن العدوى لا تستقل بنفسها بل بفعل الله .



كما وجه الله ـ تعالى ـ عباده إلى الرحمة بالوالدين قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾(1) ووجههم إلى الرحمة بالأولاد ، فمما ثبت فى ذلك : **(أتى أبو بكر عائشة وقد أصابتها الحمى فقال: كيف أنت يا بنية وقبل خدها)**(2) . وتقبيل الرسول ﷺ للحسن والحسين .

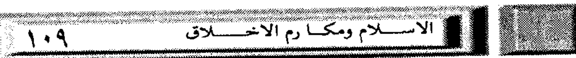
وأما رحمة الأقارب فقد روى عبد الرحمن بن عوف قال : **قال رسول الله ﷺ : «يقول الله - تعالى - : أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بتته»**(3) .

وفى هذا الحديث : تكريم للرحم ؛ حيث اشتق اسمها من اسم الله «الرحمن» الذى يفيد الاتصاف بالرحمة البالغة ، ثم بين أن من وصلها وداوم على برها داوم الله عليه رحمته ، ومن قطعها «بتته» أى : قطعته ، وحكم صلة الرحم أنها واجبة وقطعها من الذنوب الكبيرة والرحم منها القريب غير المسلم ، وقد إجاز الإسلام صلته للرحم التى يرتبط بها ، ومن وجوه صلة الرحم : ما يكون بالمال ، أو تفقد الأحوال ، أو قضاء المصالح ، ومن ثمراتها : البركة فى العمر وفى الرزق .

والحديث بهذا يفتح للرحمة أبوابها ليقبل أهل الخير على صنائع المعروف والبر :

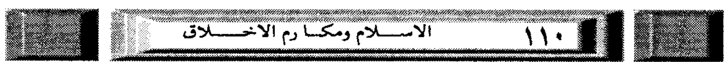
---

(1) سورة الإسراء : (٢٤) .
(2) رواه البخارى .
(3) أخرجه الترمذى وأبو داود .



وتتسع جوانب الرحمة ، حتى تشمل الجار ، والضيف ، والعمل ، والقول وفى هذا يقول الرسول ﷺ : **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن يؤمن بالله فليكرم ضيفه جائزته» قالوا : وما جائزته يارسول الله؟ قال: «جائزته يوما وليلة، والضيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه، ولا يحل أن يثوى عنده حتى يحرجه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت»** وتتجلى الرحمة بالجار ، والضيف وفى قول الخير عند من آمن بالله واليوم الآخر ، وفى تعبيره بقوله : **«من كان يؤمن»** لإثارة باعث الخوف والأمل وتعظيم شأن هذه الحقوق ، والجار هو : القريب فى المسكن ، وإكرامه بالإحسان إليه ، ومنع الأذى عنه ، **وأما الضيف** : فهو كل من نزل على غيره ، وإكرامه حسن تلقيه وتقديم التحية اللائقة به ، **أما الجائزة** : فهى مدة اجتياز الضيف من مرحلة إلى أخرى وهى يوم وليلة **«يثوى»** : يقيم ، ويكون إحراج الضيف له باضطراره إلى الاستدانة وغير ذلك مما يحرجه ، **وأما قول الخير** : فيكون بضبط اللسان وإمساكه إلا ما كان فى الخير ، ويترتب على هذه الأصول غرس الرحمة والمودة فى قلوب المسلمين ، وقول الخير :يرمز إلى الحق المتعلق بالله ، وإكرام الجار والضيف يرمز إلى حق الناس وبهذا يتضح سر الاقتصار على هذه الأمور الثلاثة .

وتتسع جوانب الرحمة أكثر ، فتشمل جميع المؤمنين ، وتكوّن منهم جسدًا واحدًا يحس كل منهم بإحساس الآخر ، عن النعمان ابن بشير - رضى الله عنهما - ، عن النبى ﷺ قال : **«مثل**



المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[1].

وفى هذا تشبيه لحال المسلمين - وهم فى توادهم أى : تواصلهم وتبادل المودة بينهم ، وفى تراحمهم وتعاطفهم - بحال الجسد الواحد فى تأثر سائر الأعضاء بما يحدث لبعضها ؛ ذلك لما يجمع بينهم من رابطة الإيمان : ﴿ إنَّما المؤمنُونَ إخوة﴾ هذه الرابطة هى أساس الرحمة الشاملة التى جعلت كُلاً منهم يحس بإحساس أخيه كما قال ﷺ فى صفة هذه الرحمة الشاملة وهذا التعاون العظيم : «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**»[2] .

كما تناول الإسلام فى الحض على الرحمة تقرير مبدأ التكافل الاجتماعى ، عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أنه قال :

بينما نحن فى سفر مع النبى ﷺ إذ جاء رجل على راحلة فجعل يصرف بصره يمينا وشمالا ، فقال رسول الله ﷺ : «**من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان معه فضل زاد فليعد به على من لا زاد له ...» فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل»**[3].

إنها لصورة رائعة من صور التكافل الاجتماعى تدعو من كان معه فضل ظهر - أى راحلة - أن يتصدق بها على المحتاج ، وكذلك الوضع بالنسبة لتطور وسائل النقل والمواصلات ، على صاحب

---

(١) رواه مسلم .
(٢) أخرجه البخارى ومسلم .
(٣) رواه مسلم .

اليسار معاونة المحتاج وحمله ، وأيضا - من كان معه زائد عن حاجته أن يتصدق به على المحتاج ، ثم أخذ يعدد كثيرا من أنواع المال ، موصيا ببذلها ، **والأمر هنا بالتصدق عما زاد محمول على الندب عند الجمهور، ويحتمل أن يكون للوجوب وذلك فى حالات الضرورة.**

وتعالج الرحمة كذلك سائر العلاقات الإنسانية ، فتعمل على تحريرها من قسوة الهجر والخصام ، عن أبى أيوب الأنصارى- رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «**لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال: يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام**»[1].

والمراد بالرجل فى الحديث: هو المسلم ، والحديث يوضح حكم الهجر بين المسلمين ، فيحرم أكثر من «**ثلاث ليال**» ويباح فى الثلاث ، أما إذا كان هجر المسلم بسبب غضب من أجل الله فلا مانع أن تزيد على ثلاثة أيام حتى يذهب سبب الغضب ويفىء إلى أمر الله ، وفى هذا الحديث : دعم لأخوة الإيمان بين المسلمين ، والعمل على إزالة ما يعكر الصفو بينهم قال تعالى :

﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾[2] .

وتنداح الرحمة فى أبعاد هائلة ، حتى تصل للإنسان فى وقت هو فى أشد الحاجة فيه إلى الرحمة وهو مابعد الموت ، فيرشد الرسول ﷺ إلى أسباب الرحمة والثواب بعد الموت عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «**إذا مات الإنسان**

(١) رواه البخارى .

(٢) سورة الأنفال : (٤٦) .

انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

و «**الصدقة الجارية**» : هى المستمرة الدائمة كالوقف والوصية ، و «**العلم الذى ينتفع به**» . يراد به أولا : علم الكتاب والسنة ، ثم العلوم المساعدة ، ثم كل ثقافة تعمل على نهوض الأمة ورقيها . و «**الولد الصالح**» هو الطائع البار .

هذه الأمور تعمل على استمرار الرحمة والمثوبة بعد الموت ؛ لأنها امتداد للإنسان ، وقد أجمع العلماء وصول ثواب الصدقة والحج ، واختلفوا فى الصوم والصلاة وقراءة القرآن . إلا إذا كان الصوم واجبا على الميت فقضاه وليه عنه[1] وقد وردت أحاديث أخرى بأمور غير هذه الأمور كبناء المساجد ، وبناء بيت لأبناء السبيل وغير ذلك ، وهذا لا ينافى الحديث الذى معنا ؛ لأنه لم يحصر ما ينتفع به الميت فى هذه الأمور فحسب ، أو يكون قد أخبر بما زاد عليها بعد ، فنبه عليه فى غير هذا الحديث ، كما لا تنافى أيضا بين الحديث وبين قوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) ﴾[2] ؛ لأن تلك الأمور المذكورة فى الحديث تعتبر من كسب المرء وعمله ، وهى - أيضا - من باب الفضل الإلهى ، أما الآية فهى تبين مقياس العدل ، أو أن تلك الأنواع قد استثنيت من عموم الآية .

ولا تقتصر الرحمة على هذه الجوانب ، بل إن الإسلام حث عليها فى شتى مجالات الحياة : الرحمة باليتيم ، عن أبى هريرة

(١) وفى رأينا أن كل عمل خيرى يصل ثوابه ، فالله ذو فضل عظيم .
(٢) سورة النجم : (٣٩) .

-رضى الله عنه - **أن رجلا شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه. فقال: «امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين»**[1].

والرحمة بالمرضى وذوى العاهات ، قال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ ﴾[2] .

والرحمة بالخدم رفقا بهم ، وتجاوزا عن هفواتهم ، عن أبى مسعود البدرى : **كنت أضرب غلاماً بالسوط فسمعت صوتا من خلفى : «اعلم أبا مسعود» فلم أفهم الصوت من الغضب، فلما دنا منى إذا هو رسول الله ﷺ فإذا هو يقول: «اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام». فقلت: يارسول الله ،هو حر لوجه الله - تعالى - ، فقال: «أما لو لم تفعل للفحتك النار»**[3].

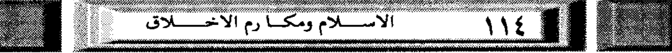
ولا تقتصر الرحمة على الإنسان ، بل إنها تشمل الحيوان رفقا به وعطفا به .

وهكذا نرى كيف اتسعت دائرة الرحمة فى الإسلام ، حتى شملت القريب والبعيد ، والإنسان والحيوان ، ولا غرابة فى هذا فإن الله- تعالى - هو الرحمن الرحيم ، وأرسل رسوله رحمة للعالمين ، فالرحمة هى جوهر الرسالة السماوية ، وفى ظلها تنعم الأم بالأمن والاستقرار ، ولن تستقر الأم وتسعد الشعوب برحمة ربها إلا إذا طبقت مبادئ القرآن والسنة ، طاعة لله والرسول ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) ﴾[4] .

وصلى الله على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله ، وصحبه أجمعين .

---

(١) رواه أحمد . (٢) سورة الفتح : (١٧) .
(٣) رواه مسلم . (٤) آل عمران : (١٣٢) .



التواضع من دلائل كمال الإيمان:

إن فضيلة التواضع مبعثها كمال الإيمان ، قال الله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) ﴾(١)

وإذا كان الكبر طريقا إلى الانخفاض وعدم الرفعة ، فإن التواضع طريق إلى العلوّ والارتفاع ، قال ﷺ : «ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»(٢) . ولطالما طبق صحابة الرسول ﷺ خلق التواضع فى كل تصرفاتهم وسلوكهم ، عن طارق قال : خرج عمر إلى الشام ومعنا أبو عبيدة فأتوا على مخاضة (مُسْتَنْقَع) وعمر على ناقة له ، فنزل وخلع خفيه ، فوضعها على عاتقه وأخذ بزمام ناقته فخاض ، فقال أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين : أنت تفعل هذا ؟ ما يسرنى أن أهل البلد استشرفوك ، فقال أوّه ، لو قال ذا غيرك أبا عبيدة جعلته نكالا لأُمة محمد ، إنَّا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام ، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله(٣) .

وقد خاطب رب العزة رسوله ﷺ بقوله : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ (٤) وقال : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) ﴾(٥) .

---

(١) سورة الفرقان : (٦٣) .
(٢) رواه مسلم والترمذى .
(٣) رواه الحاكم .
(٤) سورة آل عمران : (١٥٩) .
(٥) سورة الشعراء : (٢١٥) .

ثمرات التواضع :

من أهم ثمرات التواضع رضا الله تعالى عن المتواضعين ، وإكرامُه لهم ورَفْعُهُ لدرجاتهم ، فمن تواضع لله رفعه الله ، كما جاء فى الحديث : **«وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»**.

ومن ثمرات التواضع : منع التفاخر والبغى والظلم بين العباد ، فكم منْ ظالمين دفعهم كبرهم وغرورهم إلى ظلم إخوانهم قال ﷺ : **«إن الله أوحى إلىّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد»**.

ومن ثمراته : حبُّ الناس للمتواضع ؛ لأنه يمشى على الأرض هونا : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾[1] .

ومن ثمرات التواضع سلوك سبيل الجنة ، على عكس الكبر فإن فيه سلوك طريق النار ، قال رسول الله ﷺ : **«لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر»**[2].

الصلف والغرور من عوامل التعصب:

الإسلام هو دين السماحة واليسر ، يُقرّ الاجتهاد ، ويحرم الجمود ، ويدعو إلى التسامح والتيسير ، ويحرم العنف والتعسير ، ويحترم المنحة الربانية ، التى منحها الله الناس ، وهى منحة العقل .

وكان لكل مجتهد واجتهاده ، فلا يصح لمجتهد أن يخطئ

---

(١) سورة الفرقان : (٦٣) .

(٢) رواه مسلم وأبو داود .

مجتهدا ، ولا لصاحب عقل أن يتعصب لرأيه ويحتقر آراء الآخرين .

وإذا كان منهج الإسلام فى الدعوة قائما على الحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتى هى أحسن ، فلا يصح التعصب لرأى دون آخر ، مادام لم يصادم أصلا من الكتاب والسنة .

وإن طلاب الحق ، وأهل العلم والمعرفة يتتبعون الحكمة ويأخذونها أنّى وجدوها ، فهى ضالتهم لا يعنيهم من أى وعاء خرجت .

وإذا كان الأمر كذلك ، فما السرّ فى انتشار ظواهر التعصب ؟ وما الأسباب الجوهرية الكامنة وراء هذه الظواهر ؟

أقول : إن من أهم وإبرز أسباب التعصب للرأى والجمود على فكر واحد ، هو تحكّم الصلف والجمود ، والكبرياء والجحود ، من بعض النفوس الضعيفة ، التى تستبد بها آفة الكبر ، فتجعلها جامدة على موقفها ، متعصبة للرأى الذى تعتنقه ، وتضم الآذان عن سماع أحد ، لذا كان من الواجب أن نلقى الضوء على دعوة الإسلام للتخلّى عن رذيلة الكبر ، والتحلّى بفضيلة التواضع ، وبيان آثار الصلف وأسبابه ليتحاشاها الشباب وغيرهم ممن وقعوا فريسة التعصب الأعمى ، والجمود البغيض ، لذا لزم أن نوضح دعوة الإسلام إلى تنقية النفس الإنسانية من آفات الكبر والغرور . .

ونكشف آثاره السيئة ، وأسبابه ، ثم نوضح دعوة الإسلام إلى التواضع وبيان ثمراته .

والكبر : هو استعلاء الإنسان على غيره من الناس ، والترفّع

على من دونه ، وهو : مـرض خلقيٌّ ، ورذيلة من أسـوأ الرذائل ، نهى الإسلام عنها وحذّر منها .

قال الله - تعالى - : ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا ﴾[1] .

وقال سبحانه - : ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) ﴾[2] .

والصورة الواضحة فى معنى الكبر تظهر عندما يدفع المتكبر الحق ويرده فـلا يقـبله ، وحين يزدرى الناس ويحـتـقـرهم ، ولا يحترمـهم ، عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : «**لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر**»، **فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا، ونعله حسنة قال**: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بَطَرُ الحق، وغَمْطُ الناس**»[3] ومعنى **بطر الحق** : رده وعدم قبوله ، ومعنى **غمط الناس**: احتقارهم وعدم احترامهم .

والكبر من صفات الله تعالى ، فهو - سبحانه - : ﴿ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾[4] فالعظمة إزاره ، والكبرياء رداؤه ، قال رسول الله ﷺ : «**يقول الله**

---

(١) سورة لقمان : ١٨ .
(٢) سورة الإسراء : ٣٧
(٣) رواه مسلم والترمذى .
(٤) الحشر : (٢٣) .

تعالى : الكبرياء ردائي والعظمة إزارى، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي»[1].

والكبر يورد صاحبه موارد الهلاك ، لأنه يدفع صاحبه إلى كل شر ، ويبعده عن كل خير .

عن أبى سلمةَ بن عبد الرحمن قال : **التقى عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر على الصفا فتواقفا، فمضى ابن عمرو، وأقام ابن عمر يبكي، فقالوا: مايبكيك يا أباعبد الرحمن؟**

فقال : هذا - يعنى عبد الله بن عمرو - زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «**من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبّه الله في النار على وجهه**»[2].

ومن الآثار السيئة التى تترتب على هذا المرض الخلقى - الكبر - ما يأتى :

أولا : أن الله تعالى يعمى قلب المتكبر ، فلا يهتدى إلى الحق ، ولا يفهم آيات الله تعالى ، ولا يتدبر ما فيها ؛ لأن الله تعالى طمس على قلبه ؛ عقوبة له على تكبره ، وفى هذا إنذار لكل من تسوّل له نفسه أن يتكبر ، وأن العاقبة الوخيمة لكل من يصرف عن آيات الله بسبب تكبره ، قال - سبحانه - :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (٣) .

---

(١) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه .
(٢) رواه أحمد والبيهقى فى شعب الإيمان .
(٣) سور الأعراف : (١٤٦) .

وقال سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾[1] .

ثانيا : أن الله تعالى لا يحب كل مختال فخور ، ولاَ يَحْظَى بكرم الله تعالى إلا من أحبّه فالمتكبر بعيد عن الله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) ﴾[2] .

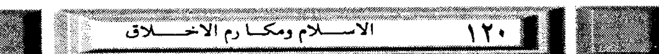
ثالثا : يمتد خطر الكبر حتى يصل صاحبه إلى أن يستكبر عن عبادة ربه سبحانه وتعالى فتكون نهايته جهنم وبئس القرار .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) ﴾[3] .

رابعًا : من الاثار التى تعود على المتكبر غضب الله سبحانه ، وسوء خاتمته حتى يلقى الله وهو عليه غضبان ، عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**من تعظم فى نفسه واختال فى مشيته لقى الله تبارك وتعالى وهو عليه غضبان**»[4].

خامسا : أن الله تعالى يعجل للمتكبر العقوبة ويضاعفها له ، حتى تصل إلى الخسف فى الدنيا ، عن أبى هريرة رضى الله عنه

(١) سورة غافر : (٣٥) .
(٢) سورة لقمان : (١٨) .
(٣) سورة غافر : (٦٠) .
(٤) رواه الحاكم والطبرانى فى الكبير واللفظ له .



أن رسول الله ﷺ قال : **«بينما رجل يتبختر في بردته، إذ أعجبته نفسه، فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»**[1].

سادسا : أن المتكبر يظل فى جهل ، وإذا علم شيئا لا يزداد علمه ، لأن كبره يمنعه إن يسأل أهل العلم ، وأن يحضر مجالس العلم ، وأن يستفسر عما يجهله . . وهذا على عكس الإنسان المتواضع ، فإنه لا يرى بأسا من أن يأخذ العلم عن العلماء ، وعمن هو أكبر منه ، وعمن هو مثله وعمن هو دونه ، كما قال بعض سلفنا :

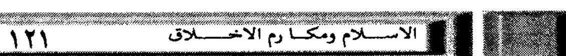
(لا يَنْبلُ الرجل حتى يأخذ العلم عمن هو فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه).

سابعا : من آثار الكبر السيئة التى تعود على صاحبه بالويل والثبور ، أنه يمنع الإنسان من قبول آراء الآخرين ونصائحهم وتوجيهاتهم ، فتراه يتعصب لرأيه ، أو للرأى الذى يعتنقه ويزعم أن ما عداه من الآراء الأخرى غير صحيح ، وأن رأيه هو وحده الصحيح ، فيظل جامدا على رأى واحد ، وفكر معين ، لا يقبل غيره ، ولا يقبل نصائح الآخرين . .

وفى هذا التعصب ما فيه من الأضرار ، التى تضيق ما وسع الله ، وتمنع الخير عن الإنسان ، وعمن يحيط به من إخوانه ، وبنى جنسه ، والتعصب هو شر الآثار السيئة التى تأتى نتيجة الكبر والغرور والصلف .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .



أسباب التكبر:

والذى يدفع الإنسان إلى رذيلة التكبر ، هو ضعف إيمانه بالله تعالى إذ لو كان قوى الإيمان بالله ، ما تكبر ؛ لأنه يكون - حينئذ - مؤمنا بأن الله وحده هو الكبير المتعالى ، وهو العزيز الجبار المتكبر .

فأول أسباب التكبر : **هو ضعف الإيمان بالله، وعدم الإيمان بالآخرة،** وما فيها من ثواب وعقاب ، وأن الملك فيها لله الواحد القهار ، قال الله تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) ﴾ [١] .

ومن أسباب التكبر **التفاخر بالأحساب والأنساب** ، والله تعالى ، قد جعل ميزان الأفضلية بتقواه ، لا بالأحساب ولا بالأنساب : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [٢] ، وعن أبىّ بن كعب - رضى الله عنه - أنه قال : **إن رجلين تفاخرا عند النبى ﷺ، فقال أحدهما للآخر: أنا فلان بن فلان حتى - عدّ تسعة - فمَنْ أنت لا أمّ لك؟ فقال النبى ﷺ : افتخر رجلان عند موسى - عليه السلام - فأوحى الله - تعالى - إلى موسى - عليه السلام - : «قل للذى افتخر: بل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم»** [٣].

ومن أسباب التكبر أن يكون الإنسان أكثر عبادة من غيره ،

---

(١) سورة النحل : (٢٢) .
(٢) سورة الحجرات : (١٣) .
(٣) رواه عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند .

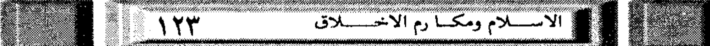
وكان عليه أن يدرك أن حسن الخاتمة بيد الله تعالى وحده ، ولا يدرى أحد من نفسه أيثبت على الطاعة أم لا ، ورُبَّ معصية أورثت ذلا وصغارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا ، **وقد روى أن رجلا من بنى إسرائيل أتى عابداً فوطئ على رقبته وهو ساجد، فقال له العابد: ارفع : فوالله لا يغفر الله لك، فأوحى الله إليه: أيها المتألّى علىّ، بل أنتَ لا يغفر الله لك**[1] .

ومن أسباب التكبر : **المال وكثرة العَرَض** ، وعلى من بيده مال ألا يتعالى على الناس به ، بل عليه أن يشكر الرزاق فيصرفه فى الوجوه المشرعة ، فالمال عرض زائل ، وهو فتنة لصاحبه فيكون سبب هلاكه ، إن طغى وتكبر بسبب المال ، ويكون خيرًا له إن تواضع به ، وأعطى حقوق العباد منه ، وعليه ألاَّ ينسى أنه من تراب وإلى تراب .

قال الشاعر:[2]

نسى الطينُ ساعةً أنه طينٌ	حقيرٌ فصال تيها وعربد
وكَسَا الخزُّ جسمَه فتباهى	وحوى المالَ كيسُه فتمرد
يا أخى لا تمل بوجهك عنى	ما أنا فحمة ولا أنت فرقد
أنت فى البردة الموشاة مثلى	فى كسائى الرديم تشقى وتسعد
أأمانىَّ كلها من تراب	وأمانيك كلُّها من عسجد ؟
وأمانى كلها للتلاشى	وأمانيك للخلود المؤكد ؟
لا فهذى وتلك تأتى وتمضى	كذويها وأى شىء سرمد
أنت مثلى من الثرى وإليه	فلماذا ياصاحبى التيه والصد ؟

(١) رواه أبو دواد .   (٢) الجداول «ديوان شعر إيليا أبو ماضى» .




وكان على صاحب المال ألا يتعالى على الناس به وألا يتفاخر ويتكاثر ، بل يُخْرج زكاة ماله ، وينفق منه ، «**نِعْمَ المالُ الصالح للرجل الصالح**» فحبذا لو جعل منه صدقة جارية تبقى له بعد موته ، كما قال ﷺ : «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[1].

والذى يتكبر بالمال ، لا يأمن أن تزول النعمة من يده ، أو يهلك ماله ، فليس له أن يستعلى على الناس بالمال ، بل عليه أن يؤدى حق الله وحق العباد .

ومن أسباب التكبر : **المنصب والسلطة والجاه** ، فكثير من الناس يتغيرون فى معاملاتهم إذا ولوا منصبا ، ويأخذهم الصلف والغرور ، وينسى رفقاء رحلته أيام التعب والخشونة ، ولكن شأن كرام المؤمنين ألا تغيرهم المناصب ، وألا ينسوا إخوانهم كما قال الشاعر :

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا ... من كان يألفهم فى الموطن الخشن

فعلى من رأى فى نفسه الاستعلاء بسبب المنصب أن يُرِىَ نفسَه أصلَها ، وأن يتخلى عن مرض الغرور ، ويتحَلّى بالتواضع فَها هو عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – . . يخطب فيقولَ : **أيها الناس لقد رأيتُنى أرعى الغنم عند خالات لى من بنى مخزوم، فأقبض من التمر والزبيب، فأظل بها يومى، فقال له عبد الرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين، ما زدتَ على أن عِبتَ نفسك ؟ فقال له عمر : ويْحَك يا ابن عوف، إنّى خلوت بنفسى فحدثتْنى، فقالت: أنت أمير المؤمنين، فمن ذا أفضلُ منك ؟ فأردتُ أن أعرفها نفسها.**

وها هو ذا عمر بن عبد العزيز كان مع بعض جلسائه، فاحتاج السراج إلى إصلاح فقام ليُصلحه، فقالوا له : كلنا نكفيك ذلك ؟ فقال :

(١) رواه مسلم والبخارى فى الأدب .

ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه، قمتُ وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر ما نقص مني شيء.

وبمثل هذا التصرف الحكيم يعالج العقلاء نزعات النفوس التى توردهم موارد الصلف والغرور ، ويعالجون ضعف أنفسهم بالحكمة .

وقد يكون العلم من أسباب التكبر عند بعض الناس ، وذلك حين لا يطلبه صاحبه لوجه الله ، وحين يباهى به الناس ، أو يتظاهر بأنه أعلم الناس وأعظم الناس ، والله تعالى يقول : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾[١] .

وقد كان الأولى بأهل العلم أن يكونوا أكثر الناس تواضعا ، لأنهم أعلم الناس بفضل التواضع ، وأدرى الناس بنهاية المغرورين والمتكبرين . .

وقد كان أهل العلم من سلفنا أكثر الناس تواضعا ، وقدوتهم فى ذلك رسول الله ﷺ ، الذى كان يستوقفه الرجل والعجوز ، والصغير والكبير فى الطريق ، وفى كل مكان فيقف ويجيب كل سائل دون ملل أو تبرم ، وكان لسلفنا الصالح نماذج عالية فى هذا المضمار ،**رأى ابن عباس - رضى الله عنهما - زيد بن ثابت يوما يركب دابته، فأخذ بركابه يقود به، فقال زيد: تَنحَّ يا ابن عم رسولِ الله ﷺ ، فقال ابن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا، فقال زيد: أرنى يدك، فأخرج ابن عباس يده فقبّلها زيد، وقال: وهكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا.**

وهكذا نرى تواضع العلماء مع كبارهم ، وتوقيرهم لهم وتواضع كبارهم ، وآل بيت النبى ﷺ ، إنها قمة التواضع والخلق الرفيع ، والأدب العالى العظيم .

(١) سورة الإسراء : (٨٥) .

القدوة فى الإسلام:

إن الحديث عن الأخلاق فى ذروتها ، وفى القدوة الحسنة فيها هو حديث عن الرسول ﷺ فيما يتصل بسلوكه وخلاله وأفعاله وأقواله ، والحديث عن الأخلاق فى رحاب السنة هو بيان لما جاء به القرآن الكريم ؛ لأن السنة مبينة للقرآن .

وقد كان خلق الرسول ﷺ القرآن ؛ لذا رأينا أن نلقى بعض الضوء على خلق سيدنا رسول الله ﷺ .

يقول الله تعالى - :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[1] .

أولا: فيما يتعلق برحمته وعطفه على أمته وسلوكه الأخلاقى .

ثانياً: فيما يتعلق بدعوته إلى الأخلاق ، وما أبرزته أحاديثه الشريفة من قيم ومبادئ يجب التمسك بها ، فقد قضت مشيئة الحق أن تلقى السماء بالأمانة الإلهية ، وأن تختم الرسالات بآخر رسول يكون خاتم النبيين يتمم مكارم الأخلاق ، ويخرج بالبشر من بين أسوار ليل متجهم ، وجهالة مطبقة ، ووثنية محدقة إلى واحة فجر مترعرع ريان ، يجتث من طريقه جذور الرذيلة ، ويزرع على ضفافه كل فضائل الخير ، فيعطر الوجود عبيره ، ويمنح الحياة رشده ، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وصدق الله إذ

(١) سورة الأحزاب : (٢١) .

يقول : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾(١) .

وعلى يديه تمت المكارم ؛ فعاش العالم فى ظل أيامه الوارفة وقد وجد الحق الذى افتقده والعدل الذى غاب عنه ، والفضائل التى دفنت تحت وطأة الظلام ، فاستعادت الحياة رشدها ويقينها ، وبدأت فى ظل إيمانها . . وما أفاءه عليها من سعادة وإشراق ترى الوجود بمنظار مبين على هدى خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه ، والله أعلم حيث يجعل رسالته وصدق الله إذ يقول : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) ﴾(٢) .

ومن فضل الله ورعايته للرسول ﷺ : أن منحه خصائص تميزت بها شخصيته الكاملة ، وتمتعت على ضوئها حياة الناس ، ونَعِمَ الجو الإسلامى بما ساد فيه من دفء الإيمان ، وراحة اليقين ، وقد أبرز هذه الخصائص فى حديثه الشريف ، فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «**فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لى الغنائم، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهورا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بى النبيون**».

وهكذا تطالعنا آيات القرآن والسنة الشريفة على مكانة الرسول

(١) سورة التوبة : (١٢٨) .
(٢) سورة الأحزاب : (٤٠) .

صلوات الله وسلامه عليه عند ربه سبحانه وتعالى كما تطالعنا الآيات بفيض غامر من الآداب الإلهية التى أوجب الله علينا أن نلتزم بها تجاه رسوله فنعرف له مكانته الشريفة ، والدرجة الرفيعة ، والمقام المحمود ، قال تعالى : ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾[1] . وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾[2] وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾[3] .

وفرض الله تعالى طاعة رسوله وقرنها بطاعته سبحانه : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾[4] . ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾[5] .

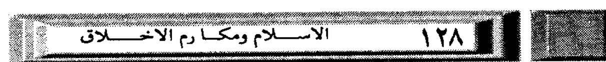
وبين ـ سبحانه ـ ثمرة هذه الطاعة : وهى أنها سبيل إلى الهداية ، وسبيل إلى الرحمة : ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾[6] وقال تعالى :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[7]

وأوجب ـ سبحانه ـ على المؤمنين ـ بجوار هذه الطاعة ـ أن يكون الله ورسوله أحب إليهم من كل عزيز وغال فى الحياة ، قال تعالى :

---

(1) سورة النور : (٦٣) .
(2) سورة الحجرات : (١) .
(3) سورة الحجرات : (٢) .
(4) سورة آل عمران : (٣٢) .
(5) سورة النساء : (٨٠) .
(6) سورة النور : (٥٤) .
(7) سورة آل عمران : (١٣٢) .



﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾[١] .

وقد استجاب أصحاب الرسول ﷺ لدعوة ربهم ، فغردت حياتهم بالحب وتهللت أيامهم بهدى الله ورسوله ، **سئل الإمام على بن أبى طالب: كيف كان حبكم لرسول الله** ﷺ ؟ **فقال: (كان رسول الله** ﷺ **أحب إلينا من أموالنا، وأولادنا، وآبائنا، وأمهاتنا، وأحب إلينا من الماء البارد على الظمأ).**

إذا ؛ فالله تعالى قد أفاض علينا من الآداب الإلهية تجاهه سبحانه ـ وتجاه رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما يمهد لنا طريق الخير ، ويذلل أمام مسيرة الحياة كل عسير إذا ما اتبعناها ، واعتصمنا بما تتضمنه تلك المبادئ من قيم سلوكية وروحية يحتضنها صدق الحب ، وتترجمها أعمالنا فتفيض الحياة بالنور ، وتجيش العواطف بالمودة ، وفى مناخ الحب الإلهى العاطر يصيب الإنسان حلاوة الإيمان ، ويذوق السعادة الحقة كما يقول الرسول ﷺ : **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لايحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار».**

---

(١) سورة التوبة : (٢٤) .

أما مكانة هذا الحب فهى المكانة الأولى ، حيث لايتقدم على حب الله ورسوله شىء ، وإلا فقد اهتز الإيمان ونقص ، وفى الصحيح : **«والذى نفسى بيده لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين»** وفى الصحيح كذلك: **أن سيدنا عمر رضى الله عنه قال: يا رسول الله، والله لأنت أحب إلى من كل شىء إلا من نفسى. فقال ﷺ : «لا ياعمر حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال: يارسول الله، والله لأنت أحب إلى من كل شىء حتى من نفسى، فقال ﷺ : «الآن ياعمر»** وهنا قد صدق الإيمان واكتملت معالمه وأشرقت دلائله فى النفس المؤمنة .

ولقد بلغت محبتهم من الصدق والعمق ما جعلهم يقدرونه حق قدره ويجلونه الإجلال كله مما يضفى على قلوبهم مهابته قال عمرو بن العاص فيما أخرجه مسلم : **(ماكان أحد أحب إلى من رسول الله ﷺ ، ولا أجل فى عينى منه، وما كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالا ؛ له حتى لو قيل لى: صفه ما استطعت أن أصفه).**

وقد فاقت محبتهم له محبتهم لأنفسهم ، فنذروا أرواحهم لفدائه ؛ حيث رأوا فيه الرحمة الشاملة للعالمين ، والنور الإلهى الذى هدى الله به الخليقة الإنسانية إلى حياة الإيمان والاطمئنان .

روى البيهقى عن عروة قال : **لما أخرج أهل مكة زيد بن الدثنة من الحرم ليقتلوه ـ وكان قد أسر يوم الرجيع ـ قال له أبو سفيان بن حرب ـ وهو يومئذ مشرك ـ: أنشدك بالله يا زيد: أتحب أن محمدا** الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنك فى أهلك ؟ فقال زيد : والله ما أحب

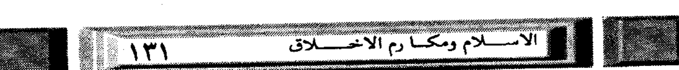
أن محمدا فى مكانه الذى هو فيه مقيم تصيبه الشوكة، وإنى جالس فى أهلى . فقال أبو سفيان: ما رأيت أحدا من الناس يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمدا ، تلك هى مكانة الرسول ﷺ عند الله وعند الناس ، أما منزلته بالنسبة للأنبياء فهو من أولى العزم من الرسل بل هو أولهم فى الرتبة العلية ، والدرجة السنية ، ولذا قدمه سبحانه عليهم فى الذكر حين نوه بشأن أولى العزم منهم فبين أنه أخذ عليهم العهد والميثاق بتبليغ الرسالة ، والدعوة إلى الدين قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾(١) .

وقد نص من بينهم على هؤلاء الخمسة لأنهم أولو العزم وهو من عطف الخاص على العام فبدأ بخاتم الأنبياء ﷺ لشرفه ثم رتبهم حسب وجودهم صلوات الله عليهم وهذا «العهد» يعنى إقامة الدين ، وتبليغ الرسالة ، والتعاون ، والتناصر ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾(٢) .

وصرح القرآن الكريم بذكرهم ، وبالوصية التى أخذ عليهم الميثاق

---

(١) سورة الأحزاب : ٧ . (٢) سورة آل عمران : (٨١) .



بها فى قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾[1].

ولما كانت مكانة الرسول ﷺ فى هذه الدرجة من السمو والرفعة عند الله ، وعند الناس ، وعند الأنبياء ، فقد أعطيت أمته من الفضل ما يتواءم مع هذه المكانة السامقة ، فهو أولى بهم من أنفسهم مطلقا ففى كل أمر من أمور الدين وفى كل أمر من أمور الدنيا هو أَوْلَى بهم كما يشهد بهذا الإطلاق قوله تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾[2]. ولهذا كان أحب إليهم من أنفسهم ـ وقد روى الترمذى فى سبب نزول هذه الآية أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أراد غزوة تبوك فأمر الناس بالخروج فقال أناسى : نستأذن آباءنا وأمهاتنا ، فنزلت الآية ، وهو لهم فى أمور دينهم بمنزلة الأب ؛ فإن كل نبى أب لأمته من حيث أنه أصل فيما به الحياة الأبدية ، ولهذا كان المؤمنون إخوة ؛ قال عليه الصلاة والسلام : «**أنا أولى الناس بالمؤمنين فى كتاب الله عز وجل فأيكم ما ترك ديناً أو ضيعة فادعونى فأنا وليه، وأيكم ما ترك مالا فليؤثر بماله عصبته من كان**».

وولاية الرسول ﷺ لاتقف عند حدود الدنيا ، وإنما تمتد شفقته بأمته ورحمته بها إلى يوم القيامة ، حيث الشفاعة لأمته ، قال

---

(١) سورة الشورى : (١٣) .
(٢) سورة الأحزاب : (٦) .

ﷺ : **«لكل نبى دعوة دعاها لأمته، وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة».**

إنه حقا لأولى بالمؤمنين من أنفسهم ؛ فقد بلغ من شفقته بهم كمالها ومنتاها ، وعنى بالنظر فى مصالحهم المهمة ، فأخر دعوته إلى أهم أوقات الحاجات . . فلكل نبى دعوة متيقنة الإجابة ولكنه لايتعجل دعوته فى الدنيا بل يدخرها ليوم تشخص فيه الأبصار ، بل إنه - صلوات الله وسلامه عليه - لايكتفى بادخار دعوته التى يحدوها اليقين المطلق بالإجابة حتى يطمئن يقينه فى الدنيا ، ويرتاح قلبه الكبير فيبلغ مرفأ البشارة بالرحمة ، ويختلج فؤاده بالرأفة بأمته ، وتفيض دموعه الناضرة الشريفة رافعا كفيه ، ضارعا إلى ربه : **«اللهم أمتى أمتى»** حتى يستجيب له ربه السميع العليم فيبلغه البشارة ، ويطمئن بالرضا .

إنه حقا بالمؤمنين رؤوف رحيم ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص : **أن النبى ﷺ تلا قول الله - عز وجل - فى إبراهيم:** ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾[1] . الآية وقال عيسى عليه السلام : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[2] . **فرفع يده وقال: «اللهم أمتى أمتى» وبكى. فقال الله عز وجل: يا جبريل، اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل - عليه الصلاة والسلام - فسأله، فأخبره**

(١) سورة إبراهيم : (٣٦) .
(٢) سورة المائدة : (١١٨) .

رسول الله ﷺ بما قال. وهو أعلم. فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: «إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك» رواه مسلم .

وكل هذا العطاء الذى تمنحه رحمة الله الواسعة لهذه الأمة منوط بواجبات تؤديها وتقوم عليها ، فإن استجابت واستقامت على الجادة ضوعف لها الجزاء الأوفى ، وارتفعت مكانتها مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وليس غريبا أن نرى أصحاب الرسول ﷺ قد هاموا به ، وامتزجت أرواحهم بحبه ، وهذا نموذج من نماذج أصحاب الرسول ﷺ تدفعه عواطفه الجياشة ؛ ليقف على مكانته من نبيه وحبيبه حتى يطمئن ، إنه ثوبان مولى رسول الله ﷺ ، كان شديد الحب له ، قليل الصبر عنه ، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه ، ونحل جسمه ، يعرف في وجهه الحزن . فقال له : **«يا ثوبان، ما غير لونك»؟** **فقال: (يا رسول الله، ما بى ضر ولا وجع غير أنى إذا لم أرك اشتقت إليك، واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة وأخاف أن لا أراك هناك، لأنى عرفت أنك ترفع مع النبيين، وإنى إن دخلت الجنة كنت فى منزلة هى أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل فذلك حين لا أراك أبدا فأنزل الله قوله:** ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠) ﴾[1] .

وإذا ما تبينت لنا مكانة رسولنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ عند

(١) سورة النساء : (٦٩ ، ٧٠) .

ربه الكبير المتعال ، ومنزلته بين أنبياء الله ورسله ، وتبينت لنا مكانته فى أمته ، وأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، كان علينا ألا نحيد عن هداه ، فلا نقدم على أمر من الأمور دون أن نتقيد بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1] .

وكما كان هذا الأدب مع الرسول ﷺ فى حياته ، فلابد من استمراره كذلك من بعدها ، وهذا واضح فى الوقوف على حدود سنته الشريفة ، فلا نتقدم عليها ولا نحيد عنها : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾[2] .

النصيحة فى الإسلام :

النصيحة من أمهات الأخلاق فى الإسلام وفوق أنها دعوة بالخير ، وإرشاد للغير فهى عبادة من أسمى العبادات ، فإن المقصود بالعبادة جانبان :

الأول: شكر الله تعالى على نعمه الجليلة .

الثانى: مواصلة السعى إلى سعادة الإنسان وربحه دنيا وأخرى ، ومن كمال الدين إرشاد الغير ونصحه ، قال ﷺ : **«الدين النصيحة»**.

وبهذا المنهج الإلهى تسمو النفس الإنسانية إلى الكمال ، حيث لايقتصر الإنسان على أداء الأمور الواجبة عليه فحسب ، بل

(١) سورة الحجرات : (١) .
(٢) سورة الحشر : (٧) .

يحاول ما استطاع أن يسعد ذويه وإخوانه ويبث بينهم سعادة الإيمان وحلاوته فيوجه النصح النافع والرشد الناجع .

والناظر إلى نعم الله ـ تعالى ـ التى أنعم بها على الإنسان يرى نفسه عاجزا كل العجز أن يحيط بها ، لكنه لايعجز عن إدراك الكثير منها ، أو عن إدراك جوانب العظمة فيها .

فهى تبدأ من مطلع نشأته ، وفجر خلقته ، فقد خلق الله ـ تعالى ـ الإنسان فى أحسن تقويم ، فجعل له عينين يبصر بهما ، ولسانا يترجم به عما يريد ، وشفتين يستعين بهما على النطق وعلى الغذاء ، وهداه النجدين ، طريق الخير وطريق الشر . . ووجهه ـ سبحانه ـ إلى عمل الخير وإلى شكر ربه ـ سبحانه ـ على ما أولاه من النعم السابغة ، ومن لم يؤد حق ربه فى نعمه ، ولم يشكره عليها ، فقد تعرض إلى سبل الخسران والبوار ؛ لأن شكران المنعم على الفضل ينمى النعمة ، ويستدر عليها أرباح الدنيا ، وأرباح الدين : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[1] . وربح الدنيا المادى يكون شكره بالرحمة والإحسان ، والتعاطف والتواصل الذى تتفجر به ينابيع الرحمة الدافقة فى قلوب المحسنين فى يوم ذى مسغبة .

وربح الدين الأخروى يتمثل شكره فى صدق الولاء لله ، فى السراء وفى الضراء ، وفى بذل النصيحة للمسلمين تواصيًا بالصبر وبالمرحمة .

وقد نعى القرآن على من أوتى الفضل ولم يؤد حقه تجافيه عن روح العبادة ، وبعده عن سبيل المعروف : ﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١)

---

(١) سورة إبراهيم : (٧) .

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) ﴾[1].

وفى موطن آخر يوضح الله ـ تعالى ـ ارتباط الربح الحقيقى الذى تتمثل فيه النجاة دنيا وأخرى بالإيمان والعمل ، وبالتواصى بالحق وبالصبر قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾[2].

وفى هذه السورة الكريمة يوضح الله للنفس الرابحة مسارين :

الأول: تقطعه من أجل كمال نفسها .

والثانى: من أجل كمال غيرها .

أما ما يتعلق بنفس الإنسان فهو الإيمان والعمل الصالح ، وأما ما يتعلق بالغير فهو التواصى بالحق والصبر .

و ﴿ الحق ﴾ هو الأمر الثابت الذى لا سبيل إلى إنكاره ، ويشتمل على الخير كله من إيمان بالله واتباع لكتبه ورسله .

و ﴿ الصبر ﴾ يكون عن المعاصى التى تتشوق إليها النفس بدافع جبلتها البشرية ، ويكون على الطاعات التى يشق على بعض النفوس القيام بها ، ويكون على ما يبلو الله ـ تعالى ـ به عباده .

---

(١) سورة البلد : (١١ :١٧) .

(٢) سورة العصر : (٢ ، ٣) .

والتواصى بالحق مرتبة أولى : هى مرتبة العبادة التى تعنى فعل ما يرضى به الله ـ تعالى ـ .

والتواصى بالصبر مرتبة ثانية : هى مرتبة العبودية وفيها يكون الرضا بفعل الله ، يقول العلامة أبو السعود : (**إن المراد بالصبر ليس مجرد حبس النفس عما تتشوق إليه من فعل وترك، بل هو تلقى ما ورد منه ـ تعالى ـ بالجميل والرضا به..**).

وهكذا اشتملت السورة الشريفة على كل خير . قال الإمام الشافعى رضى الله ـ تعالى ـ عنه : (**لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم**) وكان أصحاب الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذا التقى أحدهم بالآخر لايفارقه حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر ، ثم يتصافحان ليذكر كل واحد صاحبه بما ينبغى أن يكون عليه ، وبهذا يكون التواصى والتناصح . وقد وردا بالقرآن الكريم فى مقامين :

الأول: فى مقام الشكر لله على نعمه السابغة فى دنيا الإنسان ودينه .

والثانى: فى الفوز بالتجارة الرابحة التى لن تبور الممثلة فى نجاة العبد وسعادته ، واشتملت هذه السورة على تلك المبادئ الإنسانية ، التى تفيض سموا وإشراقا ، كما اشتملت على آداب اجتماعية رفيعة تصل بالإنسانية إلى أوج الحياة الطيبة ، حيث تتجرد من الأنانية تجردًا مطلقا ، وتصل حبالها وحبال غيرها بالله قيوم السموات والأرض ، فهى تحب الخير وتسعى إليه .

وإن التواصى بالحق وبالصبر تصحيح لعزم المسلم ، واتجاه صادق ومثمر فى محاولة تطهير البيئة الإسلامية من كل ما يلوث مناخها من دنس المعصية .

وقد جعل الله ـ تعالى ـ كمال إيمان المؤمن مرتبطًا بأن يحب لكل أفراد مجتمعه ما يحب لنفسه ، وفى الحديث المتفق عليه عن أنس ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : **«لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه»**.

وعن أبى رقية تميم بن أوس الدارى ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال : **«الدين النصيحة. قلنا لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»** رواه مسلم ، وهذا ما بايع عليه الصحابة رسولهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، ليقفوا موجهين وداعين ومخلصين لله ولرسولهم ، ففى الحديث المتفق عليه : **عن جرير بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ قال: بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم»**.

وقد وجه الله ـ تعالى ـ هذه الأمة إلى سبيل الفلاح ، والفوز المتمثل فى الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

وقال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾[2].

وقال عز وجل : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران : (١٠٤) . (٢) سورة آل عمران : (١١٠) .
(٣) سورة التوبة : (٧١) .

وإذا ما تبين أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو سبيل الفلاح والفوز ، فإن تركه والنكوص عنه طريق للنقص ، والتعرض لعذاب الله ، عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : **«إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل: أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال:** ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[1] . **ثم قال: «كلا والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه به على الحق أطرا، ولتقصرنه على الحق قصرا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم».**

وربما يسيء البعض الفهم فى قول الله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾[2] .

زاعما أنه لا ضير عليه إذا ما انتهى بنهى الله وائتمر بأمره ، ولا يضيره إن رأى غيره على غير الجادة فلم ينصحه ، وهذا غير صحيح ، لأن من صميم هداية الإنسان أن يؤدى واجب عقيدته

(١) سورة المائدة : (٧٨ ، ٧٩) .
(٢) سورة المائدة : (١٠٥) .

ودينه ، ذابًّا عن حياض الشريعة كل رذيلة ، حارسًا لحدود الله ، آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر .

عن أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - قال : **يأيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية:** ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ **وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»**[1] . وذلك أن المنكر إذا ما أطلق له العنان ، وسرى فى مجتمع مّا دون وازع أو رادع ، يلوث مناخ البيئة ، وينقل عدواه كالمرض الخبيث وعندئذ يسرى أذاه بين المجتمع ومن لم يصب فلا أقل من أن يتعرض لعواقبه الوخيمة ، من أجل هذا يؤكد الله تعالى مقاومته دوما ، وتناولت السنة تفصيل الطرق فى مقاومته ، ولم يعد لإنسان مّا عذر من الأعذار فى تركه ، عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : **سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»**[2].

وإن الإيمان ليرتبط بهذا الجهاد المقدس فى ميدان العقيدة دفاعا عن الخير ، وحماية للحدود ، وحتى لا تنطمس المعالم ، ويتطاول أهل الباطل بباطلهم على الحق ، فيعبثون الحياة بالمنكر ويلفونها بالظلام حتى لايكون هذا ، كان جهاد المسلم فى مقاومة المنكر على درجاته الثلاث ، من لم يستطع القيام به فى درجة فعليه بالتى تليها باليد أو باللسان أو بالقلب ، وليس وراء ذلك من الإيمان

---

(١) رواه أبو داود والترمذى .   (٢) رواه مسلم .

شيء ، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - : **أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبل إلا كان له من أمته حواريون، وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» رواه مسلم.**

وإذا كانت نتائج القيام بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر الفوز والفلاح والنجاة من غضب الله وعذابه ، فإن ترك القيام به يفضى إلى عواقب ليس وراءها مجال للندم ، بل وراءها الهلاك والضياع !

أولاً: يترتب على ترك القيام بالنصيحة : نقص الإيمان فى القلوب ، وتخلخل الحياة بالناس ، فيصبحون ولا استقرار لهم ويمسون ولا أمان عليهم ، ويدعون ولا يستجاب لهم .

ثانياً: يترتب على ترك القيام بالنصيحة : التعرض لعقاب الله العزيز الجبار ، عن حذيفة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : **«والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»**[1].

وأما حكم الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فإننا نرى فى قول الرسول ﷺ :

«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده.. الخ» أمر إيجاب بإجماع الأمة .

وقد تطابق على وجوبه الكتاب والسنة وإجماع الأمة كما سيأتى مزيد شرح لهذا الحديث إن شاء الله - تعالى - .

---

(١) رواه الترمذى .

هذا والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر من النصيحة التى هى الدين ، ولم يخالف فى ذلك إلا بعض الرافضة ولا يعتد بخلافهم .

والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر فرض كفاية - إذا قام به بعض الناس سقط الحرج عن الباقين - وإذا تركه الجميع أثم كل من تمكن منه بلا عذر ولا خوف ، وقد يكون فرض عين . بأن كان الإنسان فى موضع لايعلم إلا هو أو لايتمكن من إزالته إلا هو كمن يرى زوجته أو ولده على منكر ، فحينئذ يتعين ويصبح فرضًا عينيًا فى عنقه إن تساهل فيه ، وتخلى عنه ، كان عليه إثم هذا المنكر .

وليس لإنسان أن يمتنع عن بذل النصيحة وتوجيه الناس ، لظنه أن النصيحة لا تفيد ، أو أن التوجيه لايثمر ، بل يجب عليه أن يقوم بالأمر ، فإن الذكرى تنفع المؤمنين .

وكما قال - تعالى - : ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ ﴾(١) ، والأفضل لمن يتصدى للأمر بالمعروف أن يكون كامل الحال ممتثلا ما يأمر به ، ومجتنبًا ما ينهى عنه ، حتى لايدخل فيمن قال الله فيهم : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾(٢) . لكنه إن أخل بامتثال ما يأمر به والانتهاء عما ينهى عنه فإن ذلك لايخل بدعوته ، قال الإمام النووى : **(فإنه يجب عليه شيئان: أن يأمر نفسه وينهاها، ويأمر غيره وينهاه، فإن أخل بأحدهما كيف يباح له الإخلال بالآخر)** .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ميدان المسلمين جميعًا لكل منهم فيه مجال محدد ومقام معلوم ، وهذا يختلف باختلاف الشىء المأمور به والمنهى عنه . وهو قسمان :

---

(١) سورة المائدة : (٩٩) .　　(٢) سورة البقرة : (٤٤) .

القسم الأول: ما كان من دقائق الأفعال والأقوال، وما يتعلق بالاجتهاد وهذا ليس لعامة المسلمين مدخل فيه، وإنما هو خاص بالعلماء المتخصصين الذين يقفون على الأحكام، وكيفية الاستنباط من القرآن والسنة.

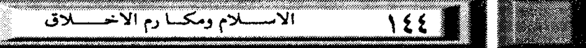
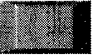
وقد فصلت السنة النبوية الشريفة واجب كل مسلم وميدان تخصصه فيه ، وأبرزت مسئولية كل فرد تجاه حياته ، واستقصت جميع المجالات من الأسرة حتى الأمة ، عن ابن عمر - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال : «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، والأمير راع والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**» متفق عليه .

وفى كل حال يجب على من يتصدى لميدان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن يكون رفيقا لينا حتى يكون أقرب إلى تحصيل المطلوب ، وهذا هو المنهج الذى رسمه القرآن للدعوة : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾(1) . وأن يتحرى الداعى الوقت الملائم والظروف المناسبة ، قال الإمام الشافعى - رضى الله عنه - : (**من وعظ أخاه سرًا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه**).

ونخلص مما سبق بنتيجتين هامتين فى حياة المسلم إذا أصابهما بلغ الأمان ، وانفتحت له سبل الهداية فى الدنيا والآخرة وكان من الفائزين :

النتيجة الأولى: إن الذين يعلنون الجهاد على الباطل ، ويقاومون

(1) سورة النحل : (125) .

المنكر فى كل أوكاره ودروبه ، يهديهم الحكيم الخبير ـ سبحانه ـ سبيل الخير فى الدنيا والآخرة ، ويمضون على صراط مستقيم لا يهددهم خطر . وإنما هم آمنون ظافرون ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾(٢) .

النتيجة الثانية: إن من ينصر دين الله ، ويجند نفسه للذب عنه ، والمدافعة عن حياضه ، يظهره الله على عدوه ، وينصره نصر عزيز مقتدر ، قال تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾(٣) .

وتتمة لبحث النصيحة نرى أن نورد ـ هنا ـ بعض الأحاديث النبوية الشريفة التى تتناول معالجة الموضوع من جميع أقطاره ، وتكشف لنا عن بعض الزوايا الهامة ، التى يجب على المصلحين ودعاة الأخلاق والمربين أن يراعوها ويضعوها نصب أعينهم .

أولا : مقاومة الخلاعة:

وفى هذا الجانب ، حذر الإسلام من الخلاعة وعمل على مقاومتها ، وتقبيح حال من يجاهر بالرذيلة ، أو يتحدث عنها ، عن

(١) سورة آل عمران : (١٠١) .
(٢) سورة العنكبوت : (٦٩) .
(٣) سورة الحج : (٤٠) .

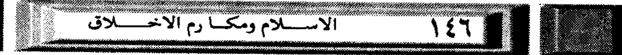
أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **«كل أمتى معافى إلا المجاهرين، وإن المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملا، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره الله، ويصبح يكشف ستر الله عنه»**[1].

وفى هذا الحديث . يكشف لنا الرسول - صلوات الله عليه وسلامه - عن موطن من أشد مواطن العيب فى الإنسان ، وهو : الاستخفاف بالذنب ، والإتيان به دون مبالاة ، بل تستبد بالمذنب الوقاحة إلى حد يضاعف فيه الذنب ، حيث لا يكتفى بارتكابه بل يتحدث به ويجاهر .

و (**المجاهر**) هو : من أظهر المعصية ، وتحدث بالخطيئة دون مداراة أو تحرج .

وقد جاء التعبير فى الحديث بلفظ «**المجاهرين**» وهذه صيغة المفاعلة التى تقتضى المشاركة بين اثنين . وهى ليست على بابها ، ولا يترتب الجزاء المنصوص عليه فى الحديث على اشتراك اثنين ، وإنما يكفى مجرد الإعلان بالمعصية من الشخص وحده . ولكنه آثر التعبير بتلك الصيغة التى تفيد اشتراك الطرفين ، مبالغة فى مادة الفعل ومعناه ، فإن المجاهر يدعو إلى الرذيلة بلسان حاله ، حيث يتأثر به غيره ، وتسرى عدواه فى المجتمع ، ولذا استثناه الرسول ﷺ من العفو الذى شمل جميع الأمة فى قوله : «**كل أمتى معافى إلا المجاهرين**» ، وكلمة معافى - أيضا - جاءت على صيغة المفاعلة ، وهى إما من العافية أى : السلامة ، وإما من العفو أى : المغفرة ، فعلى أنها من العافية : فالمراد أنه ينجو من أذى الناس ، وينجو الناس من أذاه ، قولا كان ذلك أو فعلا .

(١) رواه البخارى ومسلم .

وعلى أنها من العفو : فالمراد : كل واحد من الأمة ، يعفو الله عنه ، ويغفر ذنبه إلا المجاهرين ، ولا مانع من إرادة المعنيين ، وإنما كان المجاهرون بمنأى عن فضل الله ورحمته ؛ لاستخفافهم بالذنب ، ودعوتهم غيرهم إلى المحاكاة ، والتأثر بهم ، ثم ضرب الحديث مثلا لما يقول به المجاهرون : **«وإن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملا.. الخ»**.

و **«المجانة»** : هى الخلاعة ، وعدم المبالاة ، فالماجن إنسان بليد الشعور ، غليظ الإحساس ، فلا يبالى بما يأتيه قولا كان أو فعلا ، وفى بعض روايات الحديث : **«وإن من المجاهرة»** ولكن الرواية الأولى أكثر دلالة وأوضح ؛ لأنها تدل على إظهار المعصية ، وعلى التلبس بأعمال المُجّان .

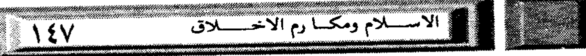
و**«البارحة»** : هى الليلة التى مضت ، وسبقت اليوم الحاضر . و**«فلان»** كناية عمن يتكلم الماجن إليه .

و**«كذا وكذا»** : من ألفاظ الكنايات ، ويكنى بها ـ هنا ـ عما صدر من العاصى ، وجملة **«وقد بات يستره ربه... الخ»** جملة حالية أفادت وقاحة صاحب هذا الفعل ، وبشاعة ما يفعله ، حيث لم يقابل الستر بالشكر ، وإنما تمرد على فضل الله ونعمته .

وإنما كان غير المجاهر أهلا لفضل الله ـ تعالى ـ ؛ لأنه دل بستره على حيائه ، والحياء لا يأتى إلا بخير ، فيترتب على ذلك إنكاره هذا العمل ، وتقبيحه والإقلاع عنه .

أو أن عدم المجاهرة طريق من طريق المقاومة ، وحصر المعصية فى نطاق ضيق ، حتى لاتظهر فيستمرئها البعض .

وهذا العفو لغير المجاهر إنما هو مقيد بما إذا تاب إلى الله ـ تعالى ـ ،

مستشعرا خطأه مقلعا عنه ، أما إذا تكرر العصيان منه فلا يدخل فى نطاق هذا العفو مهما خفيت معصيته واستترت .

وليس فى الحديث ما يوهم إتيان المعاصى سرا دون حرج مادام الإنسان غير مجاهر ، بل إن الحديث يقاوم وقاحة البعض وخَلاعتهم ، ويسجل عليهم هذا الجرم الشنيع حتى يتركوه ، وحتى لايقع فيه سواهم حين يعلم مغبة أمره ، وسوء عاقبته .

ويوضح فى نفس الوقت شمول رحمة الله - تعالى - للتوابين غير المجاهرين : **روى أن رجلا سأل ابن عمر: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى[1]؟ قال: «يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول: عملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم، فيقرره ثم يقول: إني سترت عليك في الدنيا فأنا أغفرها لك[2] اليوم».**

وأما المجاهر فلم يكن أهلا لفضل ربه ، لاستهتاره وعدم مبالاته ، وتمرده على نعم الله - تعالى - وتجرئه ، فعمل على إشاعة الفاحشة بين المسلمين ، والله - تعالى - يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾[3] .

ويدخل فى نطاق هذا الذنب - أيضا - ما إذا تحدث عن أمر حلال ، مما لايصح الحديث فيه ولا إعلانه بين الناس ، كالأمور التى تجرى بين الرجل وزوجته من أحوال المعاشرة الزوجية ، وقد يترتب على مثل ذلك من المفاسد مالا تحمد عقباه .

كما أن المسلم مطالب - أيضا - بستر عورة أخيه المسلم ، قال

---

(١) النجوى هنا : هى ما يكون بين الله وعبده المؤمن يوم القيامة .

(٢) رواه البخارى .

(٣) سورة النور : (١٩)

ﷺ : **«من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا موءودة»** ، وهذا لا يمنع النصح له وإرشاده إلى طريق الصواب .

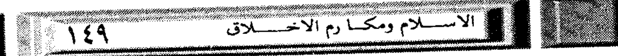
ولكن هل استثناء المجاهرين من فضل الله ، فى هذا الحديث قائم على عمومه مطلقا وأنه بعيد عن عفو الله ؟

وللإجابة على هذا السؤال نقرأ قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾[1] . فنرى أن الآية الشريفة ، قد عالجت الضعف النفسى الذى يعترى بعض النفوس ، وخلصت الإنسان من آفة اليأس والقنوط من رحمة ربه ، وعلى هذا فإن المجاهر إذا عاد إلى ربه تائبا مخلصا غفر ذنبه ودخل فى نطاق رحمة الله ـ تعالى ـ .

والآن ، إذا وضح لنا موقف الإسلام من الخلاعة والمجون ، والاستهتار بالرذائل ، والمجاهرة بها ، فما أشد حاجة المجتمع الإسلامى اليوم إلى من يأخذ على أيدى العابثين بقيم الدين ، والذين يأتون المنكر على مرأى من الناس وفى كل مكان ، على صورة التهاون حينا ، وعلى صورة المدنية الفاجرة البغيضة حينا آخر ؛ فمن الرقص المختلط ، إلى احتساء الخمر إلى غير ذلك من المنكرات ، إن مقاومة كل ذلك هو واجب كل مسلم ، وسيأتى إن شاء الله فى الحديث التالى تبيين مراتب النهى عن المنكر .

ويمكننا أن نستنبط من هذا الحديث بعض الفوائد والأحكام المهمة ، وهى : بشاعة المجاهرة بالمعصية ، وكون المجاهر بعيدا عن

(١) سورة الزمر : (٥٣) .



رحمة ربه ، وأن من استتر وتاب ، تاب الله عليه ، حيث استعظم ما ارتكبه من ذنب فرجع إلى ربه وأناب ، قال - تعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

كما تبين لنا من ثنايا الحديث رحمة الرسول ﷺ بأمته حيث عمل على تجنبها من الوقوع فى الشر ، أو التردى فى وحل المعصية وصدق الله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[2] .

ثانياً : مراتب النهى عن المنكر :

قبل أن نوضح مراتب النهى عن المنكر ، نحب أن نبين معنى كل من «المعروف» الذى يجب الأمر به ، «والمنكر» الذى يجب النهى عنه :

فى مفردات الراغب : **المعروف: اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو بالشرع حسنه، والمنكر: كل فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه، أو تتوقف فى استقباحه واستحسانه العقول، فتحكم بقبحه الشريعة .**

هذا والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو واجب الفرد ، وواجب الجماعة ، وواجب الأمة ؛ قال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[3] . وهو من سمات المؤمنين وواجبهم :

(1) سورة آل عمران : (١٣٥) . (2) سورة الأنبياء : (١٠٧) .
(3) سورة آل عمران : (١٠٤) .

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1] ، وأما المنافقون فهم على العكس من ذلك : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴾[2] .

أما عن مراتب النهى عن المنكر فقد وضحها هذا الحديث :

عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - **قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»**[3].

ففى هذا الحديث تصوير لمراتب النهى عن المنكر ، أما عن **المرتبة الأولى:** فهى تغيير المنكر باليد ، وهذا للمستطيع على مثل هذا التغيير ، وقد وجه القرآن الكريم إلى هذا النوع من مراتب النهى عن المنكر فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ﴾[4] .

---

(١) سورة التوبة : (٧١) .
(٢) سورة التوبة : (٦٧) .
(٣) رواه مسلم .
(٤) سورة الحجرات : (٩) .

وأما المرتبة الثانية: فهى تغيير المنكر باللسان ، وهذا عندما يعجز الإنسان عن التغيير باليد ، وقد رسم القرآن الكريم المنهج السليم لهذا النوع من التغيير ، فى قول الله - تعالى- : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾(١) .

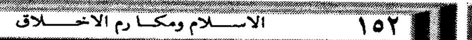
وينبغى على المتصدى لذلك أن يكون صابرا ، وألا يؤدى إنكاره إلى مفسدة أشد .

وأما المرتبة الثالثة: فهى التغيير بالقلب ، وذلك عند عدم الاستطاعة عن السابقة وصورة هذا النوع : هى الإنكار القلبى وهجر أصحاب المنكر ، وهذه المرتبة إنما هى موجودة فى المرحلتين السابقتين فى حالتى التغيير باليد أو باللسان ، ولكنها موجودة ضمنيا ، أما هنا فينبغى أن تأخذ صورة الإنكار بهجر صاحب المنكر ، وعدم معاملته ، وإظهار التبرم منه ، والضيق بما يأتيه من عمل ، وقد صور القرآن نموذجا من هذا الإعراض أو الإنكار فى قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾(٢) .

والأفضل لمن يتصدى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أن يكون فاعلا لما يأمر به من معروف ، منتهيا عما ينهى عنه من منكر ، وإلا دخل فى جملة من نعى القرآن عليهم مما يعظون غيرهم ، ولا يعظون أنفسهم بسوء ما يصنعون ، حتى أشبه

---

(١) سورة النحل : (١٢٥) .
(٢) سورة الأنعام : (٦٨) .



صنيعهم صنيع الجاهل بالشرع ، أو من لا عقل له ، قال - تعالى - : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[1] .

هذا هو الأفضل ، ولكن من الجائز إنكاره ، لأنه يجب عليه أن يكف نفسه وغيره فإن أهمل فى جانب منهما فلا يباح له إهمال الآخر ، وأيضا فلما روى : «**الحكمة ضالة المؤمن**»[2] .

وهكذا يوجهنا الرسول ﷺ إلى كلمة الحق ، ووجوب النهى عن المنكر على من علم به ، إلا إذا قام بتغييره ، كما يعلمنا فى الوقت نفسه الشجاعة الأدبية . قال ﷺ : «لا يحقر أحدكم نفسه» قالوا : يارسول الله ، وكيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال : «**يرى أمراً لله عليه فيه مقال ثم لايقول فيه، فيقول الله عز وجل يوم القيامة: ما منعك أن تقول فىّ كذا وكذا؟ فيقول: خشيه الناس، فيقول: إياى كنت أحق أن تخشى**»[3].

ثالثاً : مسئولية الفرد والجماعة وأثرها:

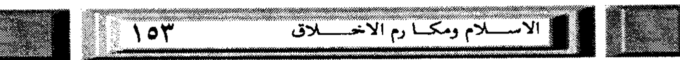
بعد هذا توضح لنا السنة الشريفة مسئولية الأفراد والجماعات والأمم فى القيام على حدود الله ، وبيان ما يترتب على ذلك من النتائج . عن النعمان بن بشير - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ

---

(١) سورة البقرة : (٤٤) .

(٢) أخرجه الترمذى فى آخر العلم من جامعة عن أبى هريرة مرفوعا بلفظ «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها» .

(٣) رواه ابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرى .




أنه قال : «**مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا**»[1].

وقد وضح هذا الحديث المسئولية الجماعية ، وأبرز لنا ما يكون للرأى العام من أثر ، وما يترتب على القيام بالمسئولية من النجاة ، وما يترتب على إهمالها من الهلاك .

وقد جاء هذا المعنى فى الحديث على صورة محسوسة واضحة ، شبه فيها الرسول ﷺ صفة القائم فى حدود الله ـ وهى المحارم ، أو الحدود التى يعاقب بها المذنبون ، كجلد الزانى ، وقطع يد السارق ـ يشبه الرسول ﷺ صفة القائم فيها أى المتصدى لها ، الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر ، وصفة «**الواقع فيها**» أى المرتكب لها كمثل قوم «**استهموا**» أى اقترعوا على سفينة تنازعوا فى الإقامة فيها فأصاب بعضهم عن طريق القرعة أعلى السفينة ، وأصاب البعض الآخر أسفلها ، فكان الفريق الذى فى أسفلها ، **إذا استقوا من الماء** ـ أى طلبوه للسقيا ـ **مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ** ـ أى لم نضر ـ **من فوقنا؟ فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا** ـ أى الذين فى أعلى السفينة الآمرون بالمعروف ـ **ونجوا جميعا** ، فنجّوا غيرهم ، وهكذا الحال بالنسبة لإقامة الحدود ، بها تحصيل النجاة ، وبإهمالها يهلك العاصى بمعصيته ، والآخر بالسكوت عن المنكر ،

(١) رواه البخارى .

لرضاه به ، قال - تعالى - : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾[1] . والحديث إلى جانب هذه المسئولية التى عالجها يستفاد منه بعض أحكام أخرى : مثل صحة جواز القرعة فى الأمور التى يحدث فيها نزاع ، والصبر على أذى الجار مع نصحه وإرشاده ، وجواز قسمة العقار المتفاوت بالقرعة .

رابعا: نتائج الدعوة:

للدعوة فى الإسلام أهمية عظيمة ؛ فبها يعرف الحق فيتبع ، ويكشف الباطل فيجتنب ، ولهذا فإن الله - تعالى - أعد لمن دعا إلى الهدى جزاء موفورا ، وأما من دعا إلى الضلال فانحرف بالدعوة إلى غير طريقها فإن عليه من الذنوب ما يثقل كاهله ، حيث يحمل أوزار من تبعه فى الضلال ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا**»[2].

وهكذا يتبين لنا أثر الدعوة واضحا ، وتتجلى النتائج التى تسفر عن دعوة أهل الحق والخير إلى الهدى ، بإرشاد الناس وتوجيههم ، فيكون لهم من الأجر أى الثواب العظيم - مثل أجور الذين اتبعوهم ، هذا مع عدم نقصان شىء من أجور من اتبعوهم ، وإنما أعد الله تعالى لهم كل ذلك ، لأن الدال على الخير كفاعله ، ولأن

---

(1) سورة الأنفال : (٢٥) . (2) رواه مسلم .

من دعا إلى هدى ، فقد بين الحق ووضح الصواب ، يؤيد هذا قول الرسول ﷺ .

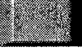
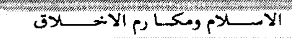
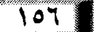
«من دل على خير فله مثل أجر فاعله»[1].

أما من دعا إلى ضلالة : ـ أى باطل ـ فى العقيدة ، أو فى الخلق ، أو فى المعاملة ، وما إلى ذلك فإن نتيجة دعوته الباطلة أن يتحمل مثل أوزار من اتبعه ، وانحرف بسببه . دون أن ينقص ذلك من ذنوبهم شيئا ، وفى هذا وعيد وتهديد لمن دعا إلى الضلال .

وليست الدعوة إلى الهدى ، أو الدعوة إلى الضلال قاصرة على القول باللسان بل يدخل فى الدعوة إلى الهدى حسن الخلق والأسوة الحسنة ، والإخلاص فى العمل وكل وسائل الإرشاد والتوجيه سواء كانت بلَسان المقال أو بلسان الحال .

كما أن الدعوة إلى الضلال تشمل ـ أيضا ـ ما كان بالقول وما كان بغيره من الوسائل المختلفة التى تزين الباطل وتغرى الناس بالانحلال ، كالقصص والروايات والأفلام والمقالات . التى تحمل السموم الفاتكة ، والرذائل المهلكة . فالحديث يدل على فضل من دعا إلى هدى وما له من أجر كبير ، وعلى سوء من دعا إلى ضلالة وما له من حساب عسير ، كما يوضح فضيلة الإِمامة فى العلم .

(١) رواه البخارى .




في توجيه المسلمين

أرسل الله تعالى رسوله ﷺ داعيا إلى الخير فى أسمى صوره ، شاهدا على أمته ، مبشرا بالنعيم كل طائع ، ومنذرا بالعذاب كل عاص ، وداعيا إلى ربه الكريم ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾[1] . ولنجاح الدعوة جمع الله للداعية المبعوث أسباب الهداية ، ووسائل الرشاد ، فأوتى جوامع الكلم ، وفصل الخطاب ، ولقد كان يعجب الصديق - رضى الله عنه - من فصاحته - صلوات الله وسلامه عليه - ويقول له : **لقد طفت فى العرب وسمعت فصحاءهم، فما سمعت أفصح منك، فمن أدبك ؟ قال: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى»** وقال - رضى الله عنه -: **يا رسول الله، مالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا؟ قال: «كانت لغة إسماعيل قد درست، فجاء بها جبريل فحفظتها».**

وقد جمع النبى ﷺ بين حجة البيان ، وفصاحة اللسان ، ولين الجانب ، ورحمة القلب ، مما جعله يؤلف بين القلوب ، ويجمع

(١) سورة الأحزاب : (٤٥ ، ٤٦) .



الناس على كلمة سواء : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾(١) . ولهذه الرحمة التى اتسمت بها جوانب الدعوة فى حياة الرسول كان حقا على المؤمنين أن يكون الرسول أحب إليهم من أنفسهم ، وحكمه أنفذ عليهم ، وحقه آثر لديهم ؛ لأنه أولى بهم فى أمورهم : فى أمور دينهم ، فهو حريص عليهم ، رحيم بهم ، يعز عليه عنتهم ، ويخشى مغبّة أمرهم لو وقعوا فى تهلكه ، أو أصابوا من حدود الله شيئا : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢) .

وهو أولى بهم فى أمور دنياهم : فلقد وسعهم بحلمه ورحمته ، وعطفه وشفقته ، يقول قيس بن أبى حازم : **أتى رجل النبى ﷺ ، فلما قام بين يديه استقبلته رعدة، فقال له النبى ﷺ : «هون عليك، فإنى لست ملكا، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»** ويقول ابن أبى أوفى : **كان رسول الله ﷺ لا يأنف ولا يستكثر أن يمشى مع الأرملة والمسكين، فيقضى له حاجته.** إنه إذًا أولى بهم فى أمور دينهم ، وفى أمور دنياهم ، كما سبق بيانه وصدق الله إذ يقول : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾(٣) .

وهذه صورة أخرى من صور التعاليم المحمدية ، التى اتسمت بها دعوته عليه السلام ، وكيف كانت فى حصافتها تعالج نواحى

---

(١) سورة آل عمران : (١٥٩) . (٢) سورة التوبة : (١٢٨) .
(٣) سورة الأحزاب : (٦) .

الحياة المختلفة ، وتؤلف كل شارد ، وتطيب كل سلوك غريب ، جاء أعرابى إلى النبى ﷺ **يطلب منه شيئا فأعطاه، ثم قال: «أحسنت إليك»؟ قال الأعرابى: لا، ولا أجملت، فغضب المسلمون وقاموا إليه، فأشار إليهم النبى ﷺ، ثم قام ودخل المنزل، وأرسل إلى الأعرابى وزاده شيئًا، ثم قال له: «أحسنت إليك»؟ قال: نعم. فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا، فقال له النبى ﷺ : «إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى من ذلك شىء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدىّ، حتى يذهب ما فى صدورهم عليك، قال: نعم، فلما كان الغد ـ أو العشى ـ جاء فقال ﷺ : «إن هذا الأعرابى قال ما قال، فزدناه، فزعم أنه رضى أكذلك»؟ قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا. فقال ﷺ : «مثلى ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فأتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورًا، فناداهم صاحبها: خلوا بينى وبين ناقتى، فإنى أرفق بها منكم وأعلم، فتوجه لها بين يديها، فأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها، واستوى عليها، وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال، فقتلتموه دخل النار».**

ولقد بلغ من حرصه - صلوات الله وسلامه عليه - على دعوة قومه وإيمانهم ، أنهم قدموا له عروض الشرف والسيادة ، ومقاليد الملك والزعامة ، وكل وسائل المجد والرفعة فى الدنيا نظير أن يتخلى عن تلك الدعوة فما التفت لما قدموا ، وإنما ظلت كلمته الشاهقة الجليلة وسام الشرف الدينى والدنيوى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها :

«والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر ماتركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

وهكذا نرى أن الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - حمل دعوته متخطيًا بها كل الأزمات ، مقتحما كل المخاطر . . واتخذ منهجه الحكيم فى دعوة الناس وتعليمهم كما رسمه القرآن الكريم له ، إذ يقول : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[1] !.

وبالحكمة والموعظة الحسنة هدى الناس من ضلالة ، وعلمهم من جهل ، بطريق لا يمل ، فكان يتخولهم بالموعظة من وقت لآخر ، عن ابن مسعود قال : **«كان النبى ﷺ يتخولنا بالموعظة فى الأيام كراهة السآمة علينا».**

كما كان من حكمته عليه الصلاة والسلام : **أنه يخاطب الناس على قدر عقولهم،** وبما يتواءم مع مداركهم ، ويتناسب مع فطرهم وأساليبهم ، ويسوق موعظته الحسنة فى سماحة ويسر ، روى أبو هريرة - رضى الله عنه - قال : **جاء رجل من بنى فزارة إلى النبى ﷺ فقال: إن امرأتى ولدت غلاما أسود وإنى أنكرته، فقال له النبى ﷺ : «هل لك من إبل»؟ قال: نعم. قال: «فما ألوانها»؟ قال: حمر، قال: «هل فيها من أورق»[2]؟**

قال: إن فيها لأورقا، قال: «فأنّى أتاها ذلك؟ قال: عسى أن يكون نزعه عرق[3]؟ قال «وهذا عسى أن يكون نزعه عرق» . وفى سبيل إقرار هذه

---

(١) سورة النحل : (١٢٥) . (٢) الأورق : هو ما كان فيه سواد غير صاف .
(٣) العرق : أصل النسب .

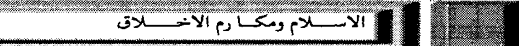
التعاليم الحكيمة كان - صلوات الله وسلامه عليه - يخاطب الناس بلهجاتهم ، عن عاصم الأشعرى قال : **سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس من امبر امصيام فى امسفر»** يريد : **ليس من البر الصيام فى السفر** ، وهى لغة الأشعريين يبدلون اللام ميما ، ومن أجل إقرار تلك التعاليم كذلك : **كان إذا تكلم كرر القول ثلاثا** ليفهم عنه ، عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - ، **أن النبى ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى تفهم عنه، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثا**، والمراد بذلك سلام الاستئذان لمن يريد الدخول على قوم ، فهو فى كل ميادين دعوته يتسم بالأبوة الحانية والأخوة المتواضعة مع جميع الناس ، يسوق تعاليمه وآدابه فى يسر وسهولة ، وحنان وإشفاق ، فهو يقول : **«إنما أنا لكم مثل الوالد، إذا أتيتم الغائط فلا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها»**.

وتطبيقا لهذه الشفقة ، وإعلانا لتلك الرحمة الهائلة يرفع شعار التيسير عملا وقولا ، فلم يخير بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ، ما لم يكن إثما فإن كان إثما كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها .

وكما رفع شعار التيسير عملا ، فقد رفعه قولا ، يأمر به أصحابه - رضوان الله عليهم - ، فعن ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال : **«علموا ويسروا ولا تعسروا، وإذا غضب أحدكم فليسكت»**.

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : **«خير دينكم أيسره، وخير العبادة الفقه»**.

كما كان فى كل أوامره ، وفى كل نواهيه ، منتهجا المنهج

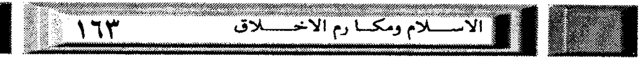




التربوى الصحيح كما علمه ربه ، وكما جاء بذلك القرآن ، فهو لا يأمر بكل الأوامر دفعة ، ولا ينهى عن كل النواحى دفعة ، وإنما **يتبع فى كل هذا وذاك التدريج** ، حتى لا يمل الناس ، وحتى لايستقلوا تعاليمه ، فها هو ذا حين بعث معاذ بن جبل إلى اليمن يزوده بالتوجيهات الكافية ، ويأمره أن يسير على سنن التدرج معهم فيقول له : «**إنك تأتى قوما من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**».

وبعد أن وجهه بهذا التوجيه قال له : «كيف تصنع إذا عرض لك قضاء»؟ قال : أقضى بما فى كتاب الله . قال : «فإن لم يكن فى كتاب الله»؟ قال : فبسنة رسول الله ، قال : «فإن لم يكن فى سنة رسول الله»؟ قال : أجتهد برأيى ولا آلو جهدا ، قال معاذ : فضرب رسول الله صدرى ثم قال : «الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله» . وأيضا فقد كان ﷺ يجعل للنساء أوقاتًا خاصة يجلسن فيها إليه لتلقى تعاليم الدين ، فقد جاء نسوة إليه ، وقلن : يا رسول الله ، ما نقدر عليك فى مجلسك من الرجال ، فواعدنا منك يوما نأتيك فيه ، قال : «موعدكن بيت فلان» وأتاهن فى ذلك اليوم .

وتقول عائشة - رضى الله عنها - : **نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين.**

وهكذا تضافر المجتمع الإسلامى بكل أشكاله على تلقى شريعته ، مسترشدا بآداب نبيه المعلم ، ورسوله القائد - صلوات الله وسلامه عليه - حتى تحقق على أيدى المسلمين آنئذ النصر العظيم ، والفتح المبين ، وكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس ، ولنا فى رسولنا أسوة حسنة ، وفى أصحابه قدوة طيبة ، فعلى منهجه نسير ، وبهداه نقتدى ، حتى يفتح الله علينا بركات من السماء والأرض ، فهو نعم المولى ونعم النصير .





العطاء الإلهى لنبى الرحمة
صلى الله عليه وسلم

لقد فاضت مواكب الجلال والعناية تحدو خطى نبى الرحمة - صلوات الله وسلامه عليه - وما كانت الرعاية الإلهية لتتخلى لحظة من اللحظات عن مواكبة الدعوة منذ فجرها الأول ، وقد بزغ فى دنيا الناس يطارد ليلا طالما جثم على صدر الحياة ، وشد ما أعيا مسيرتها الوهنانة ، وهى تسير بخطى متلعثمة فوق أشواك الرذيلة المتناثرة ، وإذا تتبعنا طبيعة الحياة بعد ذلك لنرقب على كَثَبٍ ما احتمله الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، وصحبه أولو اليقينً ، من تبجح الشرك وضراوته ما تنوء بحمله الرواسى الشامخات . . لرأينا جلال الإيمان فى القلوب يدفع بأصحابه دون ما تهيب ، ليتموا رحلتهم إلى الله ، ويبلغوا رسالاته ويخشوه ولا يخشوا أحدًا إلا الله .

وكانت آيات الوحى الإلهى تفيض على قلبه الشريف مثبتة وموجهة إلى أمثل المناهج وأقومها فى دعوة الناس : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[1] .

---

(١) سورة النحل : (١٢٥) .

وذات يوم يأتيه أبو سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبى جهل، وأبو الأعور السلمى ـ أثناء الموادعة، وقام معهم عبد الله بن أبىّ، ومعتب بن قشير، والجد بن قيس، فقالوا لرسول الله ﷺ: ارفض ذكر آلهتنا، وقل: إنها تشفع وتنفع، وندعك وربك، فشق ذلك على النبى ﷺ والمؤمنين ، وهموا بقتلهم ، فيأتيه التوجيه الإلهى مثبتًا وموجِّها : أن يفوض الأمر كله لله ، وكفى به وكيلا . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾[1] .

ولسمو مكانته عند الله ، كان التوجيه الإلهى يتنزل عليه فى كل الأوقات ، وفى أحرجها وأقساها ، موضحا أن كل أمره وأمر أمته منوط بمشيئة الله ، وما أروع الدروس الحبيبة حينما تتساوق فى أوقات الشدائد ، فتنفرج الكروب ، ويتجلى فضل الكبير المتعال . . لقد ترصدت قريش مسار الدعوة خطوة خطوة ، وبذلت من محاولات العناد والمراء ما نفدت به كل طاقة لديها ، حتى راحت تلتمس سبل الحجاج والعراقيل من منطق اليهود ! **عن عكرمة عن ابن عباس قال: بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبى معيط، إلى أحبار اليهود بالمدينة فقالوا لهم: سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى أتيا المدينة، فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أمره، وقالا: إنكم أهل**

(١) سورة الأحزاب : (١ - ٣) .

التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإلا فرجل متقول، فتروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم، فإنهم قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف، بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هو، فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم، فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ : «أخبركم غداً عما سألتم عنه، ولم يستثن، فانصرفوا عنه ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله في ذلك وحيا، ولا يأتيه جبرائيل - عليه السلام - حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل - عليه السلام - من الله - عز وجل - بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف، وقول الله - عز وجل-: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[1] . وفي هذا المقام - أيضا - نزلت سورة

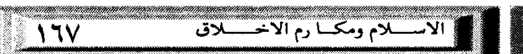
(1) سورة الإسراء : (٨٥) .

(الضحى) **فقال النبى ﷺ : «يا جبريل، ما جئت حتى اشتقت إليك» فقال جبريل عليه السلام: إنى كنت إليك أشد شوقا، ولكنى عبد مأمور، وأنزل عليه:** ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾(1) . وقد رد الله كيد المشركين فى نحورهم عندما هاجت هواجسهم ، وماجت ألسنة السوء ، وقالوا : إن محمدًا ودعه ربه وقلاه ، فأنزل الله - تعالى - قوله : ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾(2) وفى نفس الوقت الذى ترد فيه السورة عليهم عنادهم وتخرصاتهم ، تحمل بين طياتها البشرى بالفضل المرتقب ، كما يشعر بذلك إيراد اسم الرب المنبئ عن التربية وبلوغ الكمال ، مع الإضافة إلى ضميره - عليه الصلاة والسلام - ، وأن الفضل موصول ، وله فى الآخرة ما هو أكرم وأجل : ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ﴾ بل إن عطاء الله - تعالى - وافر يسبغه عليه فى الدنيا والآخرة ، فله المقام المحمود ، ولأمته السعادة بشفاعته .

وهكذا وضح الله - تعالى - ما لحبيبه من مقام محمود ، ودرجة رفيعة فى الآخرة ، وجاءته البشارة بذلك ، ثم بين - سبحانه - أنه : أفاض عليه من نعمه الجليلة ، ورعايته الوارفة التى أظلت حياته من أول لحظة انبعثت بمولده الشريف ، فاكتنفته عناية الله ذى الجلال ، حيث آواه فى كفالة مهدتها القدرة ، وفرش الحب

---

(1) سورة مريم : (٦٤) .
(2) سورة الضحى : (١ - ٣) .



مهادها ، وزينه بالطهر فى كل خطاه ، فاهتدى إلى المناجاة ، وأغناه الخالق عن الخلق ، وتنزلت عليه الشريعة السمحاء ليبعث أضواءها فى أرجاء الدنيا ، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾(١) .

وهذه آداب أخرى تترى على الرسول - عليه الصلاة والسلام - من ربه ، فيها إحقاق الحق ، وبعث لأيام اليتامى والسائلين الذين هضمت حقوقهم من قبل ، فكانت العرب تأخذ أموال اليتامى وتظلمهم ، قال مجاهد فى معنى الآية : **(لاتحتقر اليتيم فقد كنت يتيما)** وقال الفراء : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾(٢) . وقال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾(٣) .

وقد وضحت السنة الشريفة مكانة القائم بأمور اليتيم ، عن **سهل بن سعد - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ : «أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما.** رواه البخارى .

(١) سورة الضحى : (٦ : ١١) . (٢) سورة النساء : (١٠) .
(٣) سورة الماعون : (١ : ٣) .

وأما (السائل) فيرشد الله تعالى إلى إطعامه أو رده رداً جميلا لينا وقيل : هو طالب العلم ، فيجب إكرامه ، ولا يتلقى بمكروه .

وأما **نعمة الله** : فهى ما أفاضه الله عليه من عطائه الجزيل دنيا وأخرى ، ومن جملته ما ذكر من النعم ومن الشريعة .

والتحدث بها: نشرها وتبليغها والشكر والثناء عليها ، **عن الحسن بن على قال: إذا عملت خيرا فحدث به إخوانك؛ ليقتدوا بك**، إلا أن هذا لايحسن إلا إذا لم يتضمن رياء ، أو ظن أن غيره يقتدى به .

روى أن شخصا كان جالسا عند النبى ﷺ فرآه رث الثياب، فقال له ﷺ: «ألك مال»؟ قال: نعم. فقال له ﷺ: «إذا آتاك الله مالا فلير أثره عليك».

ومن عطاء الله- تعالى- لحبيبه أن شرح صدره بروح منه ، فمنحه السكينة والنور الإلهى حتى وسع مناجاة الحق ، ودعوة الخلق ، ووضع عنه وزره ، وهو ترك الأفضل ؛ لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، أو أن التعبير مجازى حيث سمى العصمة وضعا ، والمعنى عصمناك من الوزر الذى ينقض ظهرك لو حدث . .! ورفع الله ذكره ﷺ بالنبوة وأحكامها ، فقرن اسمه باسمه تعالى فى الشهادة والأذان والإقامة ، وجعل طاعته طاعة له - تعالى- ، وصلى عليه هو وملائكته ، وأمر المؤمنين بالصلاة عليه ، قال- تعالى- : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾[1] .

---

(١) سورة الشرح : (١ - ٨) .

وهنا تبرز آثار العناية الإلهية التى تحدو حياة الرسول ﷺ حيث يسرع اليسر، ويتكرر بعد العسر مباشرة، حتى قال ﷺ : «**لن يغلب عسر يسرين**» ثم يتجه النداء الإلهى ليحث الرسول - عليه الصلاة والسلام - على متابعة الجهاد، ومواصلة العبادة والجد والنصب، شكرا لربه على نعمه الوافرة التى أسبغها عليه ظاهرة وباطنة، فإذا فرغت من الصلاة فاجتهد فى الدعاء، وإلى ربك الكبير المتعالى فارغب، ولا تسل سواه، فإنه ذو الفضل والنعمة، وهو السميع المجيب .

وقد كان عطاء الله تعالى لرسوله - عليه الصلاة والسلام - عطاء غير مجذوذ، وأجرًا غير ممنون! . . أرسله إلى الناس كافة بشيرًا ونذيرًا وشرح له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، فلا يذكر الله إلا ومعه رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وجعلت أمته خير أمة أخرجت للناس، وجعلت أمته وسطا، وجعله خاتم النبيين، وأعطاه سبعًا من المثانى لم يعطها نبى قبله، وأعطاه خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطها نبى قبله، وأعطاه الكوثر، وأعطاه جوامع الكلم، وقذف فى قلوب أعدائه الرعب من مسيرة شهر، وأحل له الغنائم ولم تحل لأحد قبله، وجعل له الأرض مسجدًا وطهورًا .

وإذا تتبعنا هذا العطاء الإلهى الغامر، نخلص منه بنتائج هامة ينبغى الوقوف عندها، والتأسى بالرسول ﷺ .

أولاً : يوجه الله تعالى رسوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ عقب كل فضل أفاءه عليه بالتوجه إليه شكرا لنعمة الله، وتثبيتًا لقلبه الشريف، فبعد أن آتاه السبع المثانى والقرآن العظيم، وأمره

بالجهر بالدعوة ، جاء فى آخر السورة بالتوجيه الكريم : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾(١) .

وبعد أن ساق له عطاءه بالشهادة والبشارة والإنذار والدعوة إلى الله فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾(٢) .

جاء عقب هذا العطاء ووجهه إلى التوكل على الله فى قوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾(٣) .

وفى سورة (الضحى) بعد أن ساق الله آلاءه ونعماءه جاء فى آخر السورة بقوله : ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾ وفى سورة (الشرح) يذكر بعد تعداد النعم قوله تعالى : ﴿ **فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب** ﴾ .

وفى سورة (الكوثر) يذكر بعض عطائه لرسوله ﷺ قوله : ﴿ **فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر** ﴾ وفى سورة (النصر) بعد أن يذكر ما منّ عليه بالنصر والفتح يوجهه بقوله : ﴿ **فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا** ﴾ .

وهذا المنهج الذى اتبعه الله مع رسوله ﷺ ، إنما يشكل تواصلا بينهما، واستمرارا فى الإنعام من الله، وفى العبادة من الرسول ﷺ ، وهذا هو شأن الحبيب مع حبيبه.

---

(١) سورة الحجر : (٩٨ ، ٩٩) . (٢) سورة الأحزاب : (٤٥) .
(٣) سورة الأحزاب : (٤٨) .

ثانيا : تتمثل الأسوة الحسنة للمؤمنين برسولهم - عليه الصلاة والسلام - فهو مع مكانته العظيمة ومع غفران الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، يواصل العبادة شكرًا لله تعالى ؛ فيقوم الليل متهجداً راكعًا ساجدًا حتى تتورم قدماه ، وتفيض عيناه بالدموع وحتى يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء والخشية من الله ، فتقول السيدة عائشة - رضى الله تعالى عنها - : **أتفعل ذلك يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فيجيبها قائلا: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟»** . ما أسمى هذه القدوة به إذًا ، وما أكرمها . . ولقد أمرنا الله - تعالى - أن نتأسى به ، فقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾(١) .

ولقد مَنَّ الله - تعالى - على المؤمنين برسوله الذى تمثلت فيه الأسوة الحسنة قولا وعملا ، ووجه - سبحانه - الناس إلى أسس السعادة التى جاء بها رسوله ﷺ ، وأنها تتمثل فى تزكية نفوسهم ، وتطهيرها من كل رجس أو رذيلة تدنس حياتهم ، كما تتمثل كذلك فيما جاء به الوحى الإلهى قرآنا وسنة ، فالأسوة الحسنة إذا تمثلت فى جانبين :

الجانب الأول: هو الجانب السلوكى التطبيقى الذى شاهدوا فيه حياة رسولهم وما يُؤَدِّى به من أعمال ، ومجاهدته فى تزكية نفوسهم وتطهير بيئتهم .

---

(١) سورة الأحزاب : (٢١) .

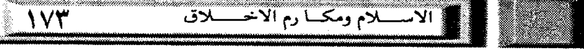
والجانب الثانى: جانب التعليم ، وهو الجانب النظرى الذى يحضهم فيه على اتباع وحيه من الكتاب والحكمة ويعلمهم إياه .

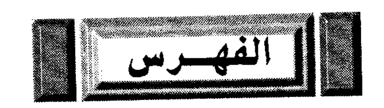
قال - تعالى - : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾[1] .

وقال - تعالى - : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾[2] .

والقرآن والسُّنَّة هما الأصلان الكريمان للتشريع الإسلامى ، فهما مناط السعادة ومحط الآمال ، وعلى هديهما تتحقق أسباب الخير فى الدنيا والآخرة ، وقد أكد الرسول ﷺ التمسك بهما فى خطبته فى حجة الوداع ، وأبرز ما فيهما من النجاة فقال : «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى أبداً: كتاب الله وسُنَّتى**».

(١) سورة آل عمران : (١٦٤) .
(٢) سورة الجمعة : (٢) .



الفهـــرس

الموضوع	الصفحة


نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨